قصص

علي بدر

حفلة القتلة

12 قصة قصيرة: حفلة القتلة، كاتب الروايات البوليسية،حكاية المترجم الهندي التي رواها لي صحفي ميت وغيرها.

ألكا

علي بدر

حفلة القتلة

قصص

ألكـــا

The Killers' Party

Ali Bader

حفلة القتلة

علي بدر

قصص

ISBN: 978 1 77322 4916

الطبعة الأولى : ٢٠١٨

تصميم الغلاف والإخراج الفني: ألكـــا

مكتبة دار ألكا

بغداد شارع المتنبي عمارة الميالي

تلفون 009647729031569

ALCA BOOKS

.Chaussée de Haecht 57, Saint Josse

Bruxelles/La Belgique

www.daralca.com/ info@daralca.com

كاتب الروايات البوليسية

هنالك روايات لكل الناس، روايات للسياسيين، روايات للوسيمين المتعالين الذين يضعون زهرة في عروة السترة. روايات للفمنيست، روايات لمصممي الأزياء التي يقرؤونها في سياراتهم الفارهة، روايات للراقصين ومربي الكلاب الصغيرة. روايات لمطربي الروك بمظاهرهم الخلابة، روايات للكتاب المتكبرين والملتزمين، روايات للسحرة، لعازفي الشوارع، للكهول المتصابين، للمغتصبين، للمهرجين. روايات للحرفيين الطاعنين في السن، لرسامي المناظر الطبيعية، للمدلكات ذوات الصدور المغرية، للفلاسفة ذوي المظهر المزري، لفاقدي الشهية، للمربين الأفاضل، للبرلمانيين في خدمة الشعب، للمتطوعين في خدمة الربّ، للصوص، للعاهرات، ولرؤساء البلديات لابسي الأحذية المخملية...

وهنالك روايات للرجال المرعبين.

حين قرر سليم ناجي أن يكتب أول رواية بوليسية في حياته، كان في ذهنه ثلاثة احتمالات للقاتل في تنفيذ جريمته. إما أن يدس للضحية الزرنيخ في الشاي، أو أن يلقي قرصاً صغيراً من السموم في كأسه وهما يتحادثان في بار دون أن تلتفت الضحية إلى ذلك، أو يدع قاتلاً محترفاً يطعنه بسكين مسمومة وهو خارج من منزل غانية في محلة دعارة شهيرة.

لقد شغف سليم ناجي ذلك الوقت بقراءات غير محترفة للروايات البوليسية، والروايات النوار، وروايات الجريمة، وكان منسحراً بالعلاقة بين المجرم والضحية وكاشف الأسرار، هذه العلاقة الثلاثية المتلازمة هي التي تجعله يشعر بالتوتر والتعرق أحياناً والرعب والخوف أحياناً أخرى، بل تكاد يداه ترتجفان كلما شرع بقراءة قصة من هذا النوع. كانت تلك الأعوام المهينة حقاً، هي أعوام الحصار الاقتصادي في العراق. وقد تسرح من خدمته العسكرية، كسائق دبابة في قوات أبادتها الطائرات الأميركية، في طريق الموت بعد الانسحاب من الكويت، وقد نجا هو من الموت بمعجزة. ثم تقلب هذا الشاب في أعمال غير مستقرة كثيرة، منها: العمل في تصريف الدولار قرب معرض بغداد الدولي كبائع متجول للعملة بالأسود، بائع ملابس مستعملة في بسطية صغيرة في ساحة التحرير، بائع صحف متجول، بائع ماء، مساعد حداد، وأعمال أخرى لا تدوم أحياناً إلا أياماً قليلة فقط.

غير أن الروايات البوليسية وروايات الرعب المترجمة من اللغات الغربية والمطبوعة في بيروت بطبعات مزورة عن الأصل من دار بيير برس لم تفارقه على الإطلاق، وكانت تسحره بصورها الملونة المرسومة على طريقة فن الكيتش ذلك أن الفن الراقي لم يكن يعني له شيئا أبداً. غير أنه كان يعتبرها روايات خيال، ونصوص تسلية، كي تسعد الناس وقت الفراغ وتسليهم، لا أكثر، لكنه بعد أن سجن عاماً كاملاً بسبب مشاجرة في سوق الملابس المستعملة في ساحة التحرير، تحول تحولاًخطيراً: لقد أدرك أن الحياة هي رواية رعب كبيرة، لها كاتب كبير أيضاً، فيها مجرمون وضحايا ولها قراء ومستمعون، وفيها لغز لا يكشف إلا عند النهاية. لقد خرج من السجن بعد أن أنهكه الجوع والقمل، وكانت ساعات التعذيب والإذلال التي نفذها نحوه بشر مثله، كافية لتتغير نظرته إلى البشر.

وهكذا قرر أن يترك كل الأعمال المذلة والمهينة وأن يصبح كاتباً لروايات الرعب، لم يكن هذا الأمر مبالغاً به، ولكن المصادفة أيضاً لعبت دورها، كانت مصادفة من تلك المصادفات التي تأتي بنقاء وإخلاص كاملين للشخص لتغيير مصيره. ذلك أنه مر يوماً في شارع الرشيد وأراد أن يعرج على مكتبة أبو يعقوب القريبة من السنك، صاحبها مسيحي ملحد، طاعن في السن، متخصص ببيع الكتب العتيقة وجلها من الروايات الأجنبية، وهنالك التقى بمعلم اللغة الانكليزية، شخص غريب الأطوار اسمه الأستاذ نديم، مدمن على شراء الكتب من هذه المكتبة، لمح سليم أكثر من مرة يشتري الروايات البوليسية فتقرب منه بشكل فضولي وشيئاً فشيئاً أصبح صديقه.

لقد أدهش سليم هذا المعلم بشكله الغريب وملابسه التي يشتريها من البالات، وأكثرها ملابس قديمة، ويضع بيديه خاتمين بإشارتين غامضتين، ويبحث عن كتب موضوعاتها غريبة مكتوبة بلغات أجنبية. وقد فسر المعلم لسليم هذا العالم بأنه ينقسم إلى اثنين مجرم يوقظ فينا الرعب وآخر يهدئ هذا الرعب عن طريق كشفه للجريمة. وأن في النفس البشرية نقطة سوداء تتلذذ بالجريمة وتتشوق للخوف والرعب. أما الجمال، والبراءة، فكلاهما مُلهمان للقسوة، والتصرفاتِ الشيطانية.

بعد هذا اللقاء الغريب شعر سليم بأنه تحرر من سليم القديم الخائف والمهان، والبريء الذي ينظر للناس بعين وادعة، لقد كبرت عيناه وأصبحتا كعيني جرادة ترى كل الأشياء مكبرة ومعكوسة في ذهنه على جميع الجهات. كان يراقب الناس ويتعرف على مشاعرهم الحادة، غضبهم، ونزوعهم إلى الجريمة، وهو يسير يتخيل القتلة والضحايا تسلم على بعض، بل كان يتخيل جميع جرائم القتل التي يمكن أن تحدث لهم. كان يشعر بتغييرات جوهرية

كلما أمعن في تصرفات الناس وسلوكهم، بل شعر أن روحه الصافية أخذت تقتحمها على حين غرة عصابة من الطيور الجارحة فتنهش فيه نهشاً، شيء أشبه بالتعذيب الوقح، ثم تنقشع فجأة هذه المشاعر وتتحول إلى رؤى حقيقة هؤلاء الناس وليس ما يتظاهرون فيه من وداعة واحترام وأدب.

حدث له ذلك اليوم أن سار في شارع الرشيد. فجأة شعر بالفزع. لقد شاهد هؤلاء الناس الوادعين وقد تحولوا بحركة بسيطة إلى سجانين مريعين يمكنهم أن يقلعوا أظافر أي شخص حتى لو كان من أحبابهم. -ما الذي جرى لي...؟ قال في نفسه.

كان ينظر إلى النساء الجميلات وقد تحولن إلى غيلان بسواطير تتلذذ بتقطيع اللحم البشري بمتعة أشبه بمتعة الجنس، كان ينظر للجميلات وقد نبتت ذيول في مؤخراتهن. يرى المطربين الوسيمين لا يغنون إنما يعربد الغضب والشتائم في حناجرهم، والتجار وهم يشتاقون لامتصاص دم أي إنسان حتى آخر قطرة فيه. كان ينظر للمرأة وهي تنظر حبيبها وكأنها تريد أن تنهش كبده أو تسحق خصيته وهو يسير إلى جانبها حاملاً بيديه ابنهما، وحتى الطفل كان يتحين الفرصة لشنق والديه لأنهما لا يستجيبان لطلباته.

فكر بما قاله له المعلم وهو يصغي له مثل تلميذ:

لا تنظر إلى المظهر الكاذب للناس، ضيق عليهم قليلاً ستعود فجأة وحشيتهم القديمة. الوحشية شي بدئي، أصلي في الناس، وخالص. البعض منهم تأتيه المتعة من الإثارة، وآخرون من القسوة كلما كان قاسياً كلما استمتع أكثر.

ثم صرخ بوجهه:

- الأنانية، التطرّف، والقسوة هي المسارُ الصحيح، طالما أننا نعيش في

عالم ليس فيه إله، ولا جحيم، ولا حق، فعليك أن تعفو نفسك من أية مسؤولية أخلاقية.

فارتجف سليم أمامه من التأثر. كان وقع الكلمات عليه شديداً فلم يكن قد سمع من قبل بكلمات حكيمة وفي الوقت ذاته شيطانية ومرعبة كهذه الكلمات، كان يربط على الدوام بين الحكمة والخير، غير أنه يسمع اليوم الحكمة، وهي مقرونة بالشر.

عاد إلى المنزل سريعاً...أراد أن يكتب شيئاً يصور فيه قبح هذا العالم. أن يستخرج من داخله كل الأشياء القبيحة المرعبة. تراءت له أيام التعذيب في السجن، لقد حولته قسوة الآخرين إلى جرذ، جرذ حقيقي وليس كناية. لقد أدرك أن الناس لا يؤمنون بغير ذاتهم. إنهم يحبون أنفسهم على نحو أناني ومتطرف، وأن فكرة البشرية التي يؤمن بها هي فكرة خادعة، صحيح أنه لم يكن قادراً على سحق نملة، لكنه يعيش بين آخرين، تنمو تحت مظاهرهم الكاذبة أظافر وأنياب، يمزقون بها أي كائن على الأرض، هؤلاء هم الأقوياء والإلهيون الذين يعيشون من دون التزامات لأحد، وكُل فرد منهم لا يمتّع نفسه إلا بإلحاق الألم بالآخرين.

ذهب سليم ليكتب قصته المرعبة الأولى، فكتب بسرعة وتشويق كبيرين، صفحتين اثنتين، ملهمتين وبارعتين، وقد تخيل فيهما أن شخصاً ذكياً وموهوباً وكارهاً للعنف مثله، يعثر في بارك السعدون على فتاة مقتولة وآثار تعذيب وحشيّ بادية على جسدها. وتحت الجثة، ثمة صندوق فيه هيكلان عظميان لفتاتين قُتلتا قبل عشرين عاماً بالأسلوب ذاته. من هنا ينطلق ليحقق في أسرار هذه الجريمة الأولى وكي يقول إن فعل الجريمة

قديم أزلي ومستمر في المستقبل...

خط سطورها الأولى في دفتر كبير اشتراه للسبب ذاته. وذهب لينام.

في منامه جاءته أحلام مختلفة؛ أحلام كابوسية مهدمة وكريهة، أحلام أشبه بمناقير كواسر تنهش في لحمه نهشاً، جعلته مثل المحموم يتعرق الليل كله، ويتقلب مثل ملسوع بأفعى. وحين استيقظ صباحاً أعاد قراءة الصفحتين فكان راضياً عنهما تماماً، بل شعر بالارتياح والبهجة، ولأنه جائع فهو لم يتناول أي شيء منذ الأمس، ذهب مباشرة وفتح الثلاجة فلم يجد شيئاً ليأكله، ما عدا قنينة حليب مفتوحة وفيها إلى النصف من الحليب المقشود. فتش بنطلونه وجد بضعة دنانير فرغب بالذهاب إلى الفرن ليشتري الخبز.

حين خرج من المنزل أخذ يفكر بعمق في قصته، أراد أن يجعل من الشخص الذي يكتشف الجريمة شخصاً له مقدرة فكرية فائقة، تقوم على استنتاج الحقائق من أدق التفاصيل وأعقدها، ويتمتع بخبرة ممتازة في شأن الأدلة الجنائية تمكّنه من حل أعقد الألغاز الجرمية. فلم يكن يريد الاعتماد على الشرطة لأنهم فاسدون، ولا على المحقق العراقي، فهو شخص غبي، قريب من السلطة يرتكب أفدح الأخطاء وهو يتصنع الدهاء.إنه أشبه بشخصية المحقق كلوزو في سلسلة أفلام «الفهد الوردي» (The Pink Panther). فقال في نفسه ربما سيعتمد على وظيفة المحقق غير المحترف الذي يدفعه الفضول ليبحث بلباقة وبراءة مصطنعة في جرائم المجتمعات الراقية وحياة السياسيين ورجال الأعمال.

عند الفرن توقف في الطابور، ولكنه قبل أن يصل الدور إليه سمع من اثنين يتحاوران، أن الشرطة بالأمس عثرت على فتاة مقتولة في الميدان

القريب من منزله، وتحت الجثة ثمة صندوق يحوي على هيكلين عظميين لفتاتين قتلتا من زمن قديم... لم يستطع الوقوف في الدور، بدت ساقاه لا تحملانه من الرعب، يعني ما كتبه بالأمس على الورقة تحقق فعلاً في الواقع...كيف يمكن ذلك؟ لقد أخذ يرتعش...ترك الفرن وعاد إلى المنزل. أعاد قراءة القصة فوجدها بالضبط ما حكاه الناس الواقفون في الدور أمام الفرن لشراء الخبز. سرعان ما مزق الورقتين بعنف ورماهما في السلة...لكنه انتبه فجأة أن الورقتين مبقعتين بالدم...فاهتز من الخوف.تناول الورقتين من السلة لكن آثار الدم زالت تقريباً عنهما، لقد شعر كما لو أنه رآهما في الوهم. غير أنه لم ينعم بالراحة، فأخذ الورقتين إلى المطبخ أشعل الطباخ وحرقهما...

سرعان ما خرج من المنزل. أراد الذهاب واللقاء بالمعلم، أراد أن يخبره بهذا الحدث غير المفهوم... أنه كتب قصة من وحي خياله بالأمس، ومن دون أن يعرف سمع بحدث مشابه له قد حدث على مقربة من منزله، كما أنه لا يعرف كيف تبقعت الورقتان بالدم. فسرعان ما مزق الورقتين من الدفتر وحرقهما. في الطريق وجد المعلم واقفاً عند عمود الكهرباء وهو يدخن كما لو أنه واقف بانتظاره.

ارتاع أول الأمر فسأله:

-هل تعرف إني أبحث عنك؟

-أعرف...

-كيف تعرف؟

-شعرت بأنك خائف وتبحث عني وجئت إليك...

-حدث شيء لا أخلاقي كتبت عن جريمة وحدثت بالفعل، هنالك فتاة ماتت حقيقة وواقعاً...

-هههه اسمع جيداً إذا أردت أن تبحث عن الأخلاق فالطبيعة وحدها هي دليلنا الأخلاقي، ما أن بدأت الطبيعة بخلِق حيوات جديدة من أشكالِ الحياة الميتة، أصبحتْ أهمية البشر لا تعلو عنِ الحشرات، جميعهم سواسية. صدقني هذه هي الحقيقة... ثم ما الجديد في ذلك، لقد استخدمَتْ الطبيعة الجريمة، التدمير، والموت ضرورة ومتعة لها، لذلك لا غبار على القتل والموت. لماذا أنت خائف؟

ترك المعلم وأخذ يسير في الشوارع، لم يعد يرتجف، كما كان يرتجف حينما سمع بأمر الفتاة التي قتلت بالأمس. لم يعد متوتراً أو خائفاً. بل أخذ يسير في الطريق وهو أشبه بالمخدر، يراقب الناس ويستجلي من كلمات المعلم حقائق يختبرها بنفسه. لم يكن مقتنعاً تماماً بما قاله المعلم، لكنه أراد أن يفرض على نفسه حباً معيناً للكائن الإنساني وهو يسير في الطريق، للجمال الذي يصنعه من بناء وفن، فأخذت نظراته تتغير تقريباً بشكل بطيء وحاسم، بل أخذت مشاعره تتآلف شيئاً فشيئاً مع الناس وهم يهمون بتقبيل بعضهم البعض، أراد أن يصفي مشاعره نحو البشر، أن يعترض طريق الناس المسرعين كي يعرف انفعالاتهم، أن يرقب أياديهم وهي تتحرك، أحذيتهم، ركبهم، حقائبهم، أحياناً ينظر إلى النساء فيعريهن بخياله، يستعرض جمال أجسادهن لدقائق ثم يتركهن ويسير، ينظر الرجال الذين يرتدون القمصان الجميلة، ربطات العنق الأنيقة، ما يتركه الناس على الأرض، أعقاب سجائر الكنت وآثار الحمرة على فلترها الأبيض، قناني البيرة الفارغة التي تخلفها سهرات الأمس.

أحس أن البشرية أيضاً جميلة، ويمكننا أن نحبها، ويمكنها أن تحبنا أيضاً، ليس كما يقول المعلم بالضبط، بأن العالم محكوم بالجريمة ومعمد بالشر، ولا دليل أخلاقياً غير الطبيعة التي تعشق التدمير والتخريب. صحيح هو ليس من المتفائلين السذج الذين يرون البشرية خيراً مطلقاً ما خلا بعض الخارجين عن القانون الذين يتسببون بخلخلة النظام الاجتماعي، سرعان ما تعيد الشرطة حالة القانون ويعود كل شيء إلى مكانه، لا ولكن هنالك دليل أخلاقي يردع فكرة التفوق الأناني للبشرية والتي تحيل الحياة إلى ركام، وإلا فلا جمال ولا متعة في هذا العالم. مع ذلك أراد أن يستمر بكتابة رواية رعب، أو رواية جريمة، ليعري الجانب الأسود أو المظلم من الحياة البشرية، ففكر بكتابة رواية عن مقتل محامي كبير، وأن يجعل منها جريمة غامضة، فربما يكون عالم الجريمة الغامضة عالماً مناقضاً بأحداثه لرتابة الحياة اليومية، وبما أنه كان مثالياً ذلك الوقت فتوقع أن هنالك حتمية ما بتحقيق العدالة.

ما أن وصل إلى منزله حتى استخرج دفتره الذي خصصه لكتابة رواياته المرعبة، وأخذ يخط أول الصفحات عن مقتل محام كبير في مكتبه، يحدث ذلك أثناء تواجده إلى ساعة متأخرة من الليل وحيداً في مكتبه الكائن في عمارة البياتي في بغداد الجديدة. وقد شاهد سائق تاكسي ثلاثة أشخاص خارجين من العمارة في الساعة الثالثة صباحاً، لم يبد عليهم أي شيء. لكن الشكوك تحوم حولهم. وهنالك سر يقع تحت الدرج المؤدي إلى مكتب المحامي المقتول، وعليه أن يحلل الجريمة ودوافعها وتتابع كل شخصية من هذه الشخصيات.

شعر بالراحة، فربما بعد هذه الرواية سينجح ويصبح أفضل كاتب من

كتاب روايات الألغاز، وروايات الغرف المقفلة، وسيكشف عن العنف والتشويه والظلم في هذا العالم، وربما سيضيف عنصر التحليل الاجتماعي وأثره على مكانة البشر في العالم السفلي، عالم الجريمة.

وما أن وصل منزله حتى سمع سيارات الشرطة والإسعاف تمر في الشارع متجهة نحو السوق في ميدان بغداد الجديدة، فخرج ليستطلع الأمر، وحين سمع من شخصين مارين مصادفة في الشارع أن المحامي حسن العنبر قد قتل بالأمس في مكتبه في عمارة البياتي، في الساعة الثالثة صباحاً، وقد رأى أحد سواق التاكسي ثلاثة أشخاص يخرجون من العمارة ذلك الوقت، حتى كاد أن يفقد عقله.

عاد إلى دفتره فوجد الصفحات التي كتبها مبقعة بالدم. ارتعش تماماً، شعر بخوف لم يجربه بحياته مطلقاً، مزق الصفحتين وحرقهما، وعاد إلى مكتبه ليفكر بالأمر، غير أنه وجد رأسه مقفلاً وعاجزاً عن التفسير. فتناول القلم وشرع بكتابة قصة عن شخص يذهب إلى متحف الآثار البابلية في بغداد، فيعثر على جثة مخفية بين مجموعة من التماثيل القديمة، أراد أن يكتب رواية تبتعد عن الواقع الذي تقع فيه الجريمة عادة، وهو واقع قبيح، يثير في المشاهد مشاعر الشفقة على الضحية والنقمة على غبائها. ويمكن في أحيان أن تتحقق العدالة في النهاية على يد ضحية محتملة في غياب شبه كلي للمحقق. ولكنه في الصباح وقبل الفطور سمع في الراديو عن جريمة في المتحف، وإن شخصاً ما قد عثر على جثة مدير المتحف مرمية بين مجموعة من التماثيل القديمة، لم يستطع سماع الخبر كاملاً، نهض من مكانه وأغلق الراديو.

مزق ما كتبه، وراح يكتب عن جريمة أخرى، جريمة تحدث في السوق، لا يكون الضحية فيها غير بقال فقير، ليست لديه أية عداوات، لتكون حادثة غامضة ومثيرة. فموت الأشخاص البسطاء والفقراء لا يثير الخيال كثيراً، مثل الأثرياء والسياسيين والأقوياء، أو مثل الجميلات والفنانات وعارضات الأزياء، وبهذا يشيع جواً حقيقياً من الغموض، غموض البيئة أولاً ثم غموض الأشخاص، وهذا هو مفتاح اللغز، وسيركز على الاستنتاج العقلي لحل لغز الجريمة. وسيجعل امرأة متفوّقة في القدرة على الاستنتاج هي التي تعثر على الجثة ومن ثم تحل اللغز، مع إثارة فضول القارئ بإشاعة الرعب والخوف.

لكنه في اليوم الثاني، تفاجئ بسماعه عن مقتل بقال، وعثور امرأة على جثته في مستنقع معتم منعزل يلفه الضباب، قد اكتشفتها في ظروف غامضة، حيث لا يعرف لماذا كانت المرأة هناك في تلك الساعة أو ذلك المكان.

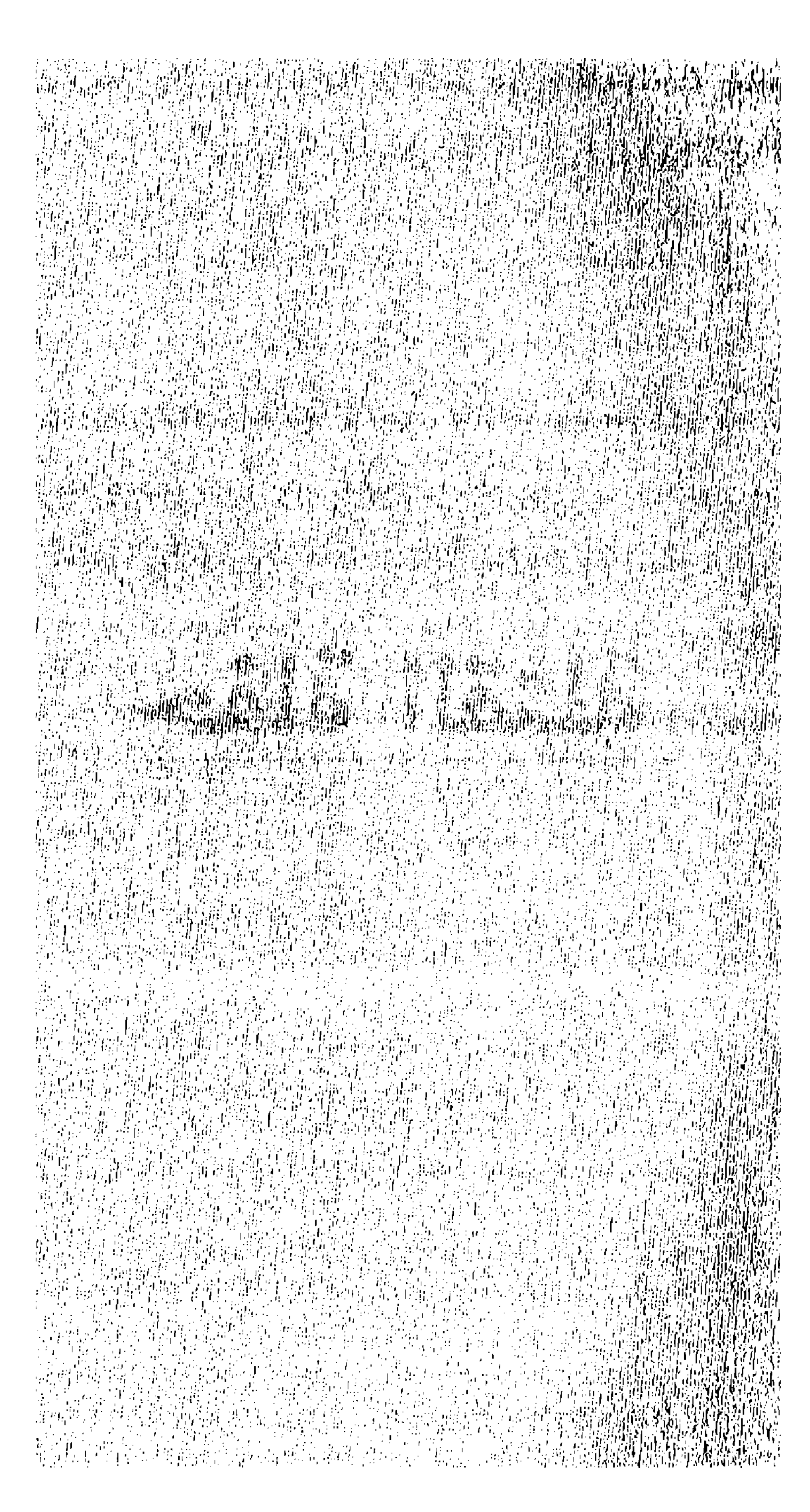
هذا الحادث أفقد سليم ناجي عقله، ولا سيما حينما رأى الأستاذ نديم بخواتمه ذات الشعارات الغامضة، وملابسه الأكثر غرائبية، وهو يمسك موسوعة الجريمة في العالم باللغة الإنكليزية ويضحك، قائلاً لسليم المرتعش: لا تخش شيئاً يا ابني، اكتب عن جرائم أخرى لأستمتع أنا بأكثر عدد من الجثث. هذا العالم الذي نعيش فيه هو قصة جنائية شديدة التعقيد، أكبر العبقريات الفلسفية لم تصل إلى حل لغز الجريمة التي فيه، لقد نجح الله في إخفاء اسم القاتل حتى اللحظة الأخيرة، إمعاناً في التشويق. وفي ختام

الحياة تظهر كل الحقيقة. وربما يستخدم الله الأحاجي التي تحيرنا وتقودنا مرات كثيرة لانحرافنا عن بلوغ الحقيقة، فلا تخش شيئاً.

كتبت صحيفة الجمهورية ذلك اليوم، أن هنالك شخصاً يدعي أن كل ما يكتبه من جرائم على الورق تصبح حقيقة، وهو يشك بمعلم اسمه نديم هو من يقوم بكل هذه الجرائم، الشاب بحالة مزرية يبكي ويتوسل الناس أن يصدقوه...

بيروت 2008

حفلة القتلة



في التصنيف الرسمي لشعبة التحريات السياسية هنالك عدة أنواع من القتلة: قتلة أغبياء، قتلة مدّعون، قتلة مشاهير، قتلة كذابون، قتلة خونة، قتلة مزيفون. قتلة أجانب، ألمان مثلاً، أو روس، أو من الصين. قتلة محليون. قتلة سياسيون. قتلة بمؤخرات كبيرة وسيارات فارهة، قتلة موهومون. بعض القتلة قادة منظمات معروفة، بعضهم صيادلة، أساتذة، أطباء، بعضهم ممثلون مزيفون. هنالك قتلة وسطاء أو جيران بائسون. قتلة منحطون. قتلة مدمنون. قتلة يعملون في المخدرات والتهريب وتجارة الرقيق الأبيض. قتلة محتالون. بعض القتلة خدم بشعون. بعضهم أساتذة في لعب القمار والتحشيش وألعاب الحظ، بعضهم بسطاء متدينون. بعضهم سياح وقحون يسكرون ويتحرشون بالنساء. قتلة مواطنون أصليون، قتلة برجوازيون. بعضهم يرتدون الصنادل القبيحة والستر القميئة، بعضهم أنيقون. بعضهم لا يعرف الحب، بعضهم عشاق سفلة.

قتلة فاحشون، موسوسون. قتلة حاقدون...

في الواقع هنالك قتلة من كل الأصناف. يعملون في كل المهن ويمكنك أن تصفهم بأي صفة تخطر في بالك، ولكن في الحقيقة هنالك قلة منهم فقط يطلقون عليهم في دائرة التحريات السياسية بالصنف النادر... وهم القتلة المخلصون.

قال لي مديري في أول يوم عمل لي:

"إننا نحتفظ بإخلاصنا في حالتين فقط، هما: الحب والقتل. تذكر هذا وأنت تعمل هنا! ذلك أن الاختيار قد وقع عليك، أنت وحدك، ستكون بيننا واحداً منا. سنحبك وسوف تحبنا أنا واثق من هذا.

عملنا الرئيس هو القتل، إنه عمل، مثل أي عمل آخر، وسوف تتعود عليه، عليك ألّا تتأثر بالدعايات التي يطلقها أعداؤنا. نحن بشر كما تعرف مثل أي بشر آخرين، لنا عائلات وأطفال نحبهم لا كما يصوروننا كحيوانات عارية قلوبهم من الرحمة، يبدو عليك رجل طيب وعاطفي. هذا ما نريده في الحقيقة، نحن لا نبحث عن مجرمين ولا عن قساة القلوب. عملك لا ينطوي على أية مغامرة ولا على أية مأساة، أنت هنا ستقف على بركة السباحة. عليك ألا تخاف، ولا تشي بأي سرّ من أسرارنا، يكفي أن أقول لك أن الشخص الذي كان قبلك قد شددنا وثاقه ورميناه في هذه البركة، جرجرناه بالحبال جيئة وذهاباً حتى مات. أنا لا أقول هذا الكلام كي أثير الرعب في قلبك، ولكني أحذرك. أنا أريد مصلحتك ولذلك أحذرك. لا يمكنك التراجع، إنه عمل قبلت به ونحن وافقنا عليك، زمن التراجع قد فات، أنت رأيت المكان ولا يمكنك أن تغادره هكذا، هذه أسرار كما تعرف، أنت تحتاجنا ونحن نحتاجك. من الوهلة الأولى اتفق جميع الضباط هنا على اختيارك، لماذا اتفق الجميع عليك، لا بد أن لك سمات جيدة أجبرتهم على اختيارك، كان من الممكن أن يرفض واحد أو اثنان طلبك، لا تخش شيئاً، فاللجنة التي تختار المرشحين تتكون من خمسة ضباط حتى لو رفضك اثنان وقبل بك ثلاثة سيكون العمل من نصيبك، أنا أقول لك هذا مثلاً، ذلك أن الجميع اختارك، هل رأيت المفارقة، لم يرفضك أحد. الجميع قبل بك، هذا يدل على

أنك تستحق هذا العمل بالفعل".

كنا في القصر الذي كان يطلق عليه ذلك الوقت بقصر الحياة، حيث مطعم شهير شيّد في العام 1969 على سطحه يحمل الاسم ذاته.كما تمت الاستعانة بمهندس معماري فرنسي اسمه P. H.بي أتج. كان يعمل في لبنان، وبالاتفاق مع شركة مقاولات فخمة تم تشييد صالة رقص في الطابق الثاني، وصالة موسيقى فول هارموني وأوبرا في الطابق ذاته، وتم الاستعانة بشركة إيرانية في فترة الشاه على الأرجح في العام 1970 لتشييد بركة أولمبية للسباحة على السطح أيضاً، مع زاوية للباربيكيو وحفلات الشمبانيا الخاصة، من الواضح لم تشارك أية شركة عراقية في تشييده لذلك بقي مجهولاً تقريباً تماماً من قبل العامة، فلا أحد يعرف عنه شيئاً، لقد كان مثل مركبة فضائية تائهة في هذا الكون.

أما عملي فيه فيعود إلى العام 1972، في زمن مدير الأمن المعروف بوحشيته ذلك الوقت ناظم كزار. ولم أكن أعرف أبداً طبيعة العمل في هذا المكان ولا المهمات التي يقوم بها، فقد ذهبت لمقابلة عبر إعلان صغير قرأته في صحيفة الثورة العراقية لطلب موظف خدمة سياحية في مطعم قصر الحياة. وهناك عرفت أسرار هذا المكان بالتفصيل ولم أعرفها دفعة واحدة، إنما على شكل دفعات.

في اليوم الأول عرفت أنه مكان لتسلية عائلات الضباط الكبار في شعبة التحريات السياسية، ولكن فيما بعد عرفت أن الطابق الأول والسرداب والكراج الداخلي هو مكان التحقيق والسجن وتنفيذ العمليات، وحتى عند ذهابي أول يوم للمقابلة، بل وحتى في الأيام الأولى من عملي هناك، لم

الآن أعرف بأني سأمكث في هذا المكان مدة طويلة لم يسمح لي خلالها بيوم واحد إجازة، بل أني لم أطلبها بالأساس.

وسواء أني وافقت على هذا العمل بعد عرضه علي، وعملت فيه بمحض إرادتي أو أجبرت عليه ووافقت مكرهاً، فهذا الأمر لم يعد مهماً بالنسبة لي الآن مطلقاً، ذلك أني وجدت نفسي بعد مدة وجيزة بأني باق في هذا المكان أبدياً، وكنت أشهد كل يوم معتقلين يأتون بهم من أماكن مختلفة معصوبي الأعين حيث تأتي الشاحنات بهدوء ومحركها ينغر بقوة، بعد أن تعطي إشارتها من خلال مصابيحها العالية يشير لها الحراس بالتقدم حيث تنفتح البوابة الحديدية السوداء مثل واحدة في قلاع القرون الوسطى وترتفع إلى أعلى، فتتقدم الشاحنة إلى الأمام داخل الباحة وسرعان ما تهبط البوابة خلفها بهدوء من أعلى إلى أسفل. هنالك تلقي حمولتها من السجناء المعصوبي الأعين، حيث يقودهم السجانون بالضرب والركلات إلى غرف الكهرباء، أو إلى الكراسي المسمرة التي تمزق اللحم حيث يجلسونهم بالقوة، وهنالك حجرة كبيرة فيها آلة لتكسير العظام خاصة بالسجناء الصلبين الذين لا يعترفون بسرعة، أو إلى غرف الكهرباء التي تهز الجسد عبر الشواية إلى أن تتكسر عظامه، وفي الباحة يقود المحققون سيارات الشاحنات الصغيرة فوق رؤوس السجناء العنيدين الذين لا يريدون الاعتراف.

وبالرغم من أنني ظننت، وهو أمر ليس منافياً للحقيقة، بأنه مكان استراحة وتسلية ومتعة مخصّصاً لعائلات شعبة التحريات السياسية، وهو ما موجود فعلاً في طوابقه العلوية. لكني حتى تلك الفترة لم أكن دخلت بعد طابقه الأول ولا سردابه، ومن زيارتي الأولى فهمت أن القسم السفلي هو الجحيم بعينه، حيث تشوى أجساد المشكوك فيهم وهم أحياء، يقوم بذلك ضباط التحريات بينما عائلاتهم ترقص في الأعلى، وبناتهم بالمايوهات في

،رك السباحة، وزوجاتهم يأكلن الباربكيو، ويتحدثن عن الموضة.

في البدء شعرت بغشاوة بيضاء تتلبسني، فهؤلاء الرجال المعلقون يصرخون من الألم وهم يسمعون الموسيقى الصاخبة في الطوابق العليا، ويستمعون إلى أطفال الضباط وهم يسبحون في البركة، وإلى الزوجات وهن يصرخن على الأطفال لئلا يتعرض أحد منهم إلى حادث. وعلى هذه الأصوات البشرية هنالك العديد منهم يتلاشى في الموت ويختفي إلى الأبد، وفي المساء تأخذ الشاحنات جثثهم لتلقيها في النهر بعد أن تبقر بطونهم كي لا تطفو جثثهم.

أما المسؤول عن هذا القصر، وهو رئيسي المباشر فهو شاب بالكاد بلغ الأربعين من عمره، له زوجة جميلة وطفلان اثنان في غاية الوسامة، وقد تدرب ودرس في جامعات غربية متنوعة على استراتيجيات الأمن الوطني، والمخابرات، وطرق التحري، وانتزاع الاعترافات، وتهديم شبكات التجسس، وإبطال المؤامرات السياسية. وبالرغم من ذكائه إلا أني شعرت من اليوم الأول أنه ينتمي إلى أكثر كائنات العالم شناعة. فالشناعة والخبث والدهاء موهبة نادرة، وهذا العالم لا يفتقر بأي حال إلى هذه المواهب النادرة التي تنضح قسوة وتعالياً. يلقبونه ببرفسور القتل. وربما طغت شهرته على اسمه بل أن اسمه اليوم قد طواه النسيان، على نقيض أسماء نوابغ أوغاد آخرين، لا لأنه أقل منهم تعالياً واحتقاراً للبشر ولا أخلاقية؛ وإنما لأن عبقريته وطموحه قد انحصرا في ميدان لا يخلف وراءه أثراً في التاريخ.

وبشهادة كل من عملوا معه فهو العبقري الوحيد الذي تمكن من ابتكار

الحلول الأمنية بمخيلة شعرية نادرة. وقد حصل على تكريم ورعاية خاصة من مدير الأمن، ذاته، لقد كان شخصاً طموحاً يريد الوصول إلى رتبة مدير الأمن أو وزير الداخلية. وكان منكباً على القتل بصدق وشرف، يقوم بنفسه بتعذيب الضحايا لانتزاع الاعترافات منهم وهو يتصبب عرقاً، ويقوم بحرق وكي وتقطيع أوصال الرافضين للكلام مثل حداد صبور. فهو أكثر صرامة وانضباطاً من أي متدين في شؤون دينه، وهو يدقق في كل كلمة ويفحص معاني أي سجين بدقة رغم الكلمات الطافرة من الفم مع العويل والصراخ.

لقد كان مخلصاً حقاً وإن كنا نسمع بين فترة وأخرى نقيض هذه الحقيقة، فكل ما قيل عنه فيما بعد هي مبالغات سياسية تافهة وشائعات لا تمت بصلة لجوهر المخيلة. لقد أثبت لنا أن القتل ليس صناعة وإدارة بيروقراطية فقط، بل مخيلة شعرية أيضاً لا يملكها إلا أناس من صنف نادر. إن تحقيقات جميع ضباط التحريات، ربما في العالم، حتى الموهوبين منهم، هي ألاعيب تافهة أمام مخيلته في ابتكار طرق لجعل المتهمين يعترفون وهم يهلوسون ويسبحون في بركة من الدماء والبول واللعاب. فطريقته شيطانية وطفولية في آن معاً، نوع من اللعب الذي يمارسه بسرعة وشغف، ليجعل أكبر رجل ينسحق أمامه مثل قملة صغيرة لا تستحق أدنى شفقة.

حين دخلت أول مرة للمكان شعرت بهذه الغربة، فقد كان المكان أشبه بالمقبرة، والمحققون يشبهون حراس الماضي، والضحايا معلقون أمامهم مثل ملابس بالية، يطن على وجوههم الذباب، بينما الشمس الدافئة تدخل من الشبابيك العلوية مثل ليمونة ناضجة. كان برفسور القتل يدور على الخونة المعلقين ويتفحصهم، يتفحص من يرفض أن يتكلم أو من يروي بصدق ونزاهة، ومن يتظاهر بالموت يرفسه على خصيتيه فالأوغاد عادة لا

يتكلمون إلا بعد أن يعرفوا أن برفسور القتل قد وصل تلك المنطقة.

وبفضله لم يخرج أحد من هذا السجن، فالكل ينتهي إلى عجينة مهروسة من اللحم والعظام، يضعه عمال التنظيف في كيس زبالة تافه، ويرمونه بطريقة مثيرة للسخرية. ولكن من يخرج بأعجوبة فلا يخرج كما دخل أبداً، إنما يخرج مثل سلك صدئ بلا مؤخرة ولا أسنان، لن يخرج إلا عبارة عن فم وثقب للبراز.

ومن اليوم العاشر قد سرت برفقة مديري، الذي كان يتجول في هذه المجزرة وهو يبتسم كما لو أنه يتجول في غابة، كنت أسير معه وأنا أقرأ على جدران الزنازين أسماء منقوشة، كما لو كانت قبوراً، وكان أحد الميتين ملقى على البلاط، وآثار يد على حنجرته، نمر من اثنين وهم يجزون سجيناً فنسمع صوت اندلاع الدم على البلاط.

كان الموت والجمال في هذا المكان متجانساً، في الأيام الأولى كنت مصدوماً، وكنت أشم رائحة الموت من الأقبية السفلية، الرائحة النتنة التي تخنقني وتملأ عيني بالدموع، على العكس من الطوابق العليا حيث طلاقة الهواء والأزهار والعطور، كنت أود في الأيام الأولى أن أفر من رائحة الضحايا والدم والبراز، وفي فصل الربيع حيث انتعشت براعم الليمون، كنت أبدي ارتعاشة مشوبة بالفزع كلما رأيت قتيلاً في السرداب لكن شيئاً فشيئاً صرت لا أرى الضحايا إلا وهم مشوبون بالغصون العطرية في الأعلى، وهكذا صار افتتاني بهذا المكان هائلاً. كانت مهمتي بسيطة، فالمتهمون الذين يعترفون ويقدمون أسماء رفاقهم في التحقيق يكافئون بأن يؤخذوا إلى أعلى ليجلسوا في الظل وهم يشربون الكوكتيل ويأكلون اللحم المشوي.

وهكذا كنت موزعاً تلك الأيام بين أن أهبط إلى الأسفل حيث أقتاد أحد

الضحايا وأصعد به إلى السطح حيث طلاقة الهواء، وروعة الظل والضوء. كانت الجيفة والأزهار تقدم لي لوحة ألوان هستيرية وهبتني قوى سحرية. لقد خبرت للتو، الدرس، وهو لقائي الفزع الأول مع الموت، وقد خففته الحياة العظيمة أعلى القصر.

لم يكن مديري مديراً لشعبة التحريات فقط، بل كان هو المسؤول عن القصر كله، ولنفرض أن أسمه ج. ع. فقد كان يكفي أن تلفظ اسمه حتى يرتعش الأشخاص الذين أمامك من الهلع، إن قربه من السلطات لا يعني شيئاً كبيراً، فهو الأعلى تقديراً في كل مكان، ويحصل على العديد من المكافآت والهدايا، والتي تفوق قيمتها بكثير راتبه الشهري. فكما تعرف هنالك على الدوام ترابط بين الدم والمال، فالمزيد من الدم والوحشية تعني المزيد من المال والثروات.

أما الحدث الأكبر الذي حدث، بعد عامين من عملي، هو خيانة مفكر الحزب وتدبيره لمؤامرة على رئيس البلاد، فقد جمعت الأدلة الأولية لإدانته بعد خطأ وقع فيه في اجتماع دوري ذلك العام فقام بانتقاد رئيس الحكم، من هنا ساورت وزير الداخلية الشكوك بأن تكون هناك مؤامرة وراء هذا الانتقاد، فذهب إلى الرئيس وشرح له الأمر، ولكن من الواضح أن لوزير الداخلية مخيلة خبيثة ذلك أنه تكلم بمنتهى الجد عن مؤامرة خطيرة، حتى جعل الرئيس يرتعد من الخوف مثل زاهد يحتضر.

فقال للرئيس:

- إن انتقاد مفكر الحزب لك بهذه الطريقة يعني أن الثورة بخطر، فهو

..وم بتهيئة لانقلاب على الثورة، أو شق الحزب إلى نصفين، ولا بد أن هنالك جهة خارجية وراءه.

من تلك اللحظة لم يعد الرئيس قادراً على النوم أبداً، لقد شعر أن المؤامرة لا بد أن تكون على وشك الحدوث في أية ساعة، وقد أخذ يشك بكل شخص حوله، فإن كانت هنالك مؤامرة غير مكشوفة فلا بد أن يكون هنالك أحد ما مزروع بالقرب منه، سينقض عليه في أي وقت، إذن لا بد من الإسراع بكشف المتآمرين وتصفيتهم.

السرعة في تصفية الخصم هي الوسيلة الوحيدة للنجاة.

من هنا اتفقوا على إحالة ملف مفكر الحزب على مدير الأمن، الذي أمر بإلقاء القبض عليه وتقديمه إلى شعبة التحريات في قصر الحياة لينال جزاءه.

وقد بدء الأمر هكذا:

في أحد المساءات الصيفية كنت واقفاً إلى جانب مديري في الزاوية التي تسكب فيها الشمبانيا وتدار على الضباط الحاضرين وهم يتحدثون ويضحكون. وقد بدا لي القمر في ذلك المساء الصيفي مستديراً مثل قطعة نقدية، ويلمع محاطاً بنهر من النجوم التي تلوّن باللون الفضي سعف النخيل الذي يهتزّ مع حركة الهواء.

يا لهذا المشهد الرائع ويا لهذه الأمسية الرائعة، إلا أن هؤلاء الضباط لا يأبهون بأي شيء حولهم، إنهم يتركون كل هذا الجمال الطبيعي ويتحدثون بمتعة بالغة عن أفضل الطرق وأبشعها في تمزيق الأجساد البشرية، وعن أفضل أساليب التعذيب الحديثة وأكثرها قسوة، كانت أحاديثهم هلوسات وحشية ممزوجة بضحك دموي قاس.

أما الحديث الأكثر أهمية في تلك الأيام وقد رافق أو وافق وجودي في هذا المكان هو الخائن الأعظم، المسؤول عن أكبر مؤامرة في البلاد، وقد كان فيما مضى مفكر الحزب وصانع أيديولوجيته، لكنه اكتشف فيما بعد بأنه خائن وفيما سيعترف غداً على رفاقه أم لا.

في اليوم التالي جيء بالمعتقل وقد وثقت يداه خلفه، ووضعت عصابة سوداء على عينيه وأجلس على كرسي وسط قاعة التحقيقات الأولى وهي للشخصيات الخطرة. تم حل وثاقه أمام مديري، وكنت أقف على مقربة منه، وهنالك سبعة ضباط وهو الأهم في الشعبة، حيث يعدون من أهم المتحرين في القضايا السياسية في البلاد.

لقد كان مديري سعيداً ذلك اليوم، فالحدث أكبر من كل مرة لأن القرف أخذ يتسلل إليه بسبب هذه الجولات الروتينية كل يوم في قصر الحياة. كان يريد تسلية مختلفة غير التعذيب اليومي المعتاد. المهم ألا يمر النهار من دون لمسة عظيمة. فوجه مفكر الحزب لا يذكر بوجوه الشؤم من الخونة العاديين، وتعذيبه الذي لا يخلو من الحب لا يؤدي إلى التعاسة، وأول الأفكار التي أتته أن العمل المدهش لا يأتي مرة واحدة إنما يمكن أن تحدثه بأشياء صغيرة كمن يرسم وجهاً بآلاف الوخزات في إبرة ماكنة خياطة.

ما أن أنزلوا العصابة من عينيه حتى فاحت منه رائحة الخوف الكريهة، كان صادقاً ونزيهاً في رعبه وربما له حكايات ممتعة ومثيرة غير الحكايات السياسية لو تركوه لانسابت من شفتيه مثل نهر من حليب، لكنهم طلبوا منه فقط الاعتراف أولاً بضلوعه في مؤامرة على رئيس البلاد، وثانياً كشف أسماء المتآمرين، وفي المرحلة اللاحقة من هو مدبر المؤامرة ومن الدول الخارجية الداعمة.

ورغم الرعب والارتجاف الذي سيطر على مفكر الحزب إلا أنه ابتسم بسخرية أصيلة، منكراً أي ضلوع له بمؤامرة، هذا التصلب أزعج المدير جداً.

أنت لست ضحية للعبة غادرة، لقد تكلمت عن تصحيح الأوضاع عبر توجيهك للرئيس نظرات مثقلة بالعداء.

لم يجب مفكر الحزب.

لقد اشتد غضب مديري وصار أشبه بقدر يغلي في داخله. لم يكن سهلاً أن يرى الرئيس يواجه كل هذا اللؤم من خائن، إلّا أنه في البدء أخذ يعامله باحترام كمن يدلل امرأة. وقال له ربما كنت تخطط لمؤامرات متخيلة هدفها التسلية لا غير، ألعاب دموية تفيد المتعينين حديثاً في شعبة التحريات السياسية.

دارى المعتقل اضطرابه. وأشعل مديري سيجارة، كان يدخن دون أن يُخرج السيجارة من بين شفتيه، مطلقاً الدخان من فمه وأنفه، وهو يداعب آلة يمكنها أن تنتزع اللحم بمخالب مصنوعة من النيكل الصلب، لقد حُدّثْ ببراعة قاسية، كان مشهدها مثيراً للرعب حقاً. لقد صنعت في أحد المصانع السرية في بلد آسيوي خصيصاً لانتزاع اعترافات الأشخاص الصلبين والذين يمثلون خطراً على الدولة. ولم تخرج هذه الآلة إلا خصيصاً لهذه الليلة، ولم تستخدم إلا مع متآمر واحد فيما مضى، وقد استخدمها أحد الضباط ذلك اليوم ببراعة تامة وتم انتزاع الاعترافات من المعتقل حتى نفق.

واليوم سوف تجرب على هذا المتآمر وهو الأهم في تاريخ البلاد، فالثورة لم يمض عليها سوى بضعة أعوام، وقد قام بخيانتها مع أنه هو منظرها وراسم أيديولوجيتها.

في البداية جيء له بجثة ابنه معلقة بحبل وحين رأى الجثة صرخ.

وأخفى وجهه بين يديه، بينما أخذ أحد الضباط بلكمه على وجهه ورفع يديه لإجباره أن يرى الجثة، كانت جثة شاب أسمر بعظام بارزة قد مات بالتعذيب. جاءوا به معلقاً على شيش من الحديد الصدئ. كان شكل جسده النحيل بملابسه الممزقة منفراً، وقميصه الممزق عليه بقع دم، وقد خلعوا بنطاله حتى وصل قدميه، فتدلت خصيتاه بعد ربطهما بسلك. كان أشبه بفزاعة الحقل، لقد بتر أنفه، وسحق فمه فظهرت أسنانه وعليها خثارات من الدم. وانتشرت على وجهه وجسمه الكدمات الزرقاء في كل مكان، وقد رصعت بطنه بحروق السجائر.

قبل أن يصرخ مدّ مديري له هذه الألة الحادة وبدأ بنهش لحمه ببطء، لم يستغرق الأمر طويلاً، نصف نهار من العمل المتواصل، بين كي بالكهرباء، ونهش بمخالب حديدية، وبين شي في المكواة، تمكن مديري من انتزاع الاعتراف منه.

لقد اعترف بالمؤامرة وهو يبكي، وقد دون مديري على ورقة مخططة جميع الأسماء وبخط واضح وأنيق، وأرسلها مباشرة كبرقية إلى مدير الأمن، وقد صرخ وزير الداخلية من فرط السعادة وهبات الله السخية التي أنعم فيها على الثورة والدولة بهذا الرجل الذي لا يضارع في خدماته. لقد قرأ الأسماء بنشوة لا توصف، ولا سيما بينها أسماء وزراء وكادر متقدم في الحزب، وقد أرسلها مباشرة إلى رئاسة الجمهورية وإلى جميع شعب التحريات لجمع الخونة من كل مكان.

وكان مديري سعيداً ذلك اليوم لأن كوكتيل الضحايا في المكان يثير سعادته مثل مضاجعة حامية، كان يتكلم وهو يرتعش، قال لنا أن هذا المتهم لا يشبه أية متهم آخر إنه مثل ملاك هابط تواً من السماء، إنه ينبوع أسماء، ينبوع زبائن. وحتى بكاءه وصراخه لا يثير غثيانه مثل الآخرين، كان

..ـرك أمامه مثل جرافة مزمجرة ويدون له أقواله، أما مفكر الحزب الذي ..رس من جوانب رأسه فقد جذب الدم عصابة من الذباب التي أخذت تدور .لى رأسه مثل هالة على رأس قديس.

وفي المساء بعد أن انتهى الطبيب من مداواة جروحه طُلب مني أن أصطحب مفكر الحزب إلى أعلى، إلى الباربكيو ليشرب الشمبانيا ويأكل المشويات.

وهكذا أصعدناه بسدية ذلك أنه لم يكن يتمكن من المشي، وأجلسته في مكان جميل، يطل على الباحة وعلى البركة. وقد رافقنا أحد الضباط وقد صعد السلم معنا أيضاً، قال إنه ذاهب ليعلم ابنته السباحة بعد أن نفق تحت يديه سجين أو سجينان.

فجلسنا نرقب المشهد، كانت ابنته تطفو على الماء، إنه الدرس العاشر في المسبح حيث الأب سعيد ورفاقها الأطفال ينظرونها وهي تنجح في العوم بعيون محمرة من الكلور. ومن الفرح انغمر الضابط في الماء للوصول الى القاع في الأسفل، بينما قدمت زوجته لصديقاتها الكعكة والبوظة المثلجة. أما مفكر الحزب فهو جالس على السدية أمامي وشفتاه تنزفان دماً وأسماء.

لم أعمل أي شيء ذلك الوقت، لم يكن لدي أي رد فعل، فأخذت أراقب الأطفال، وأعماق المسبح الأزرق الصامت، والسجناء وهم يسيرون معصوبي الأعين. ومنظر الحزب وهو يشرب الشمبانيا، وبين آن وأخر كان يقطع مشروبه ليسعل ويبصق دماً.

كانت أخبار المؤامرة هي الخبر الذي تصدر مانشيتات أكبر الصحف والمجلات، حتى العالمية منها، وكان هو الخبر الأول في التلفزيونات

والإذاعات، وكانت المقابلات لا تتوقف مع مدير الأمن الذي شرح بإسهاب خطر هذه المؤامرة وخطوطها الخارجية وقدرة رجال التحريات ولا سيما ج ع الذي تمكن بعبقريته من كشف خطوطها ومراحلها. وقال إنهم الآن يتحفظون على مفكر الحزب فما زال يحتفظ بأسماء عديدة لم يذكرها، والتحقيق معه جار. وأنه تكلم من دون أن يستخدموا معه أياً من الوسائل القسرية.

وهكذا استمرت العملية أشهر، كل يومين أو ثلاثة يؤخذ مفكر الحزب إلى التحقيق، ما أن يبدأ التعذيب حتى ينهار شيئاً فشيئاً، ويعترف على أسماء جديدة، ثم يقوم مدير شعبة التحريات بتسجيل الأسماء بصورة واضحة وأنيقة، وهو ينضح عرقاً وتعباً، فيرسلها وهو يبتسم إلى مدير الأمن، الذي ما أن يقرأ الأسماء حتى يصاب بإرباك هائل، ثم يتحول الإرباك إلى نوع من الرعب الحجري، فينذهل وتتحول ملامحه إلى خطوط مرسومة على صخر، فيطلب من رجال التحريات البحث عن المطلوبين وإرسالهم لشعبة التحريات في قصر الحياة لإجراء دورة تحقيقات معهم وتصفيتهم سريعاً.

أما أنا فأصطحب الرجل إلى الطابق الأعلى وأجلسه على الأريكة المعدة له قرب شواية الباربكيو من ثم نقوم بخدمته من الشراب والطعام وهو ينزف أسماء على لحيته ودماً.

لقد استمرت هذه الحالة أياماً وشهوراً ولم تنقطع، كل يوم يواجه مفكر الحزب بمؤامرته ويعذب فينهار شيئاً فشيئاً ليعترف بعدد كبير من الأسماء حيث يدونها مديري على ورقة وهو يتصبب عرقاً، بينما مفكر الحزب يتصبب دماً، تُطبع جميع الأسماء على آلة الكاتبة ثم تبرق إلى مدير الأمن، بعد ساعات تبدأ الشاحنات بالتدفق وهي حاملة الأشخاص المدونة أسماءهم لهذا اليوم، فيقوم الرجال بالتخلص منهم بسرعة، حيث يتم توزيعهم على

الصعق الكهربائي، الشوايات، أدوات سلخ الجلد، ماكنة تكسير العظام، ثم وضعهم في أكياس وتحميلها في سيارات لإلقائها في النهر أوفي منطقة في الصحراء ودفنهم بقبور جماعية.

كانت الأعداد تتكاثر كل مرة. كاد الحزب أن ينتهي، فإن استمر مفكر الحزب بنزيف الأسماء هذا يعني أنه سيقضي على الحزب كاملاً. لقد أصيب الجميع بالرعب، فلا أحد يعرف على من سيكون الدور هذه المرة.

وفي كل مرة تبرق الأسماء إلى وزير الداخلية تحدث فزعاً بسبب أسماء الوزراء والجنرالات والأعضاء الكبار في الحزب، ولكن لا فرق بين متآمر وآخر، فالكل سواسية حيث تحملهم الشاحنات وتلقي بهم في القاعة الكبيرة وهم معصوبي الأعين يبكون ويرتجفون وينكرون أية علاقة لهم بالمؤامرة المزعومة.

لكن المدير لا يتوقف فقد أخذ يجري المزيد من التحقيقات كما يسميها تحقيقات رئيسية وتحقيقات ثانوية، ويفتح مزيداً من الغرف، ويتكتم على بعض المعلومات بسرية تامة، ويجري العديد من الاتصالات المكثفة للبحث عن اسم الفاعل الرئيس في هذه العملية وقد كان مفكر الحزب يخفيه عمداً.

كانت جميع البرقيات التي تصل إلى مكتب مدير التحريات تريد أن تعرف من هو الرأس المدبر لهذه المؤامرة، ولكنه لم يصل بعد، ذلك أن تحقيقاته تنحصر بأعضاء الشبكة من أجل تهديمها، وكانت أعداد المتآمرين الكبيرة التي تقتضي تصفيتهم يمنعه من التدقيق حول شخص بعينه، والمشكلة أن الأعداد تتضاعف كل مرة، وأخذت بالتزايد، وبنفس الطريقة، وتتم تصفيتهم مثل كل مرة حيث تحملهم الشاحنات وتلقي بهم في الباحة ثم تبدأ عملية

تصفيتهم وتدميرهم. لقد مرت شهور قاسية بين قتل المتآمرين الذين ظلوا يتدفقون بطريقة عجيبة، وبين البحث عن الرأس المدبر الذي لم يكن له أي أثر في التحقيق أبداً.

وفي يوم تلقى مدير التحريات اتصالاً هاتفياً من الوزير نفسه، ومن مسؤولين في الدولة يمتدحون إخلاصه وعبقريته، ولكنهم لا يفهمون لماذا لا يعرف إلى الآن الرأس المدبر لهذه العملية كلها. لقد قال لهم أن المفكر يخفي هذا الاسم عمداً ويخشى أن يضغط عليه فيموت في التحقيق وتبقى الشبكة مثل خلايا نائمة، وما عزز من هذا الأمر أن أعداد المعتقلين بدأت تزداد بصورة مرعبة، أخذت تلقي الشاحنات صباحاً ومساء بأعداد هائلة، لقد شيدت قاعات جديدة قرب القصر لكي تستوعب أعداداً كبيرة من المعتقلين، بل شيدوا محرقة لحرق الجثث، ومرحاضاً للضباط، وبقيت أعداد المعتقلين تزداد كل مرة. وكان مديري يعمل بجد ونشاط وبإدارة عالية للتخلص من كل المتآمرين وفي كل مرة أخذ يوسع قدراته في هذا المجال، ويستخدم كل مخيلته في تحويل القتل إلى نوع من الفن.

إلى أن قرر الوزير ومدير الأمن أن يحضرا جلسة التحقيق بنفسيهما، وأن يجبرا مدير التحريات أن يحقق مع مفكر الحزب، من أجل أن يعترف على الرأس المدبر لهذه المؤامرة.

جاءوا بالخائن من زنزانته وأجلسوه وسط القاعة. وكان بعض الضحايا الذين ذكر أسماءهم بالأمس معلقين حوله على الجدران مثل فزاعات الحقول المقفرة. كان الوزير موجوداً، ومدير الأمن، وخمسة من الضباط المهمين الذين تلقوا تدريبهم على يد مديري بشكل مباشر.

كان جواً بارداً وأصمَ ووراء مفكر الحزب حائط عملاق مبقع بالدم.

احتمالات والكل ينتظر، كان جالساً على حافة الكرسي والفكرة تشع برأسه مثل جمرات المجوسي.

سأله وزير الداخلية:

اسمع لم يعد لدينا الوقت الكافي، لقد صبرنا كثيراً، عليك اليوم أن تنطق باسم الرأس المدبر لهذه المؤامرة.

رفع مفكر الحزب عينيه ونظر في عيني الوزير، وأشار له إشارة الموافقة.

لحظات صمت ووزير الداخلية يتململ من الانتظار، لا أحد يعرف ماذا سيقول. الكل ينتظر.

وفي لحظة، التفت مفكر الحزب إلى مديري الذي أخذ تنفسه يصعد وينزل، رفع أصبعه وأشار على مديري:

-هذا الرأس المدبر للمؤامرة.

بعد أن نطق هذه الجملة عم صمت مرعب لدقائق طويلة. بهت مديري غير مصدق، ولكن الجميع نظر صوبه نظرة حقد.

أراد أن يتكلم ليقول لهم أنه كاذب، فكر بأن يتمالك نفسه، ابتسم لهم مندهشاً كي يهرب من هذه المصيدة القذرة. حاول أن يتصنع الشجاعة واللامبالاة.

إلا أن الوزير لم يمهله الوقت ليدافع عن نفسه، أشار إلى ضباط التحريات الخمسة فهجموا عليه، لقد سقط بأيديهم مثل قط مذعور، بل صغر وأصبح مثل نقطة صغيرة وهي ترتعش. لاأدري كم استغرق ذلك من الوقت. لكن هذه النقطة عادت شيئاً فشيئاً وتحولت إلى خرقة بشرية بسبب العنف، فالعنف هو شكل من أشكال الهلوسة البصرية والمادية.

لقد مزق مديري بطريقة لا مثيل لها، وهو حي ينظر إلى نفسه ويتلوى من الألم، من ثم أخذوه إلى المفرمة هرسوه وحولوه إلى عجينة من اللحم والعظام.

لقد كانت موته أيضاً أشبه بالهلوسة، هلوسة العنف والوحشية التي درسها لتلامذته الخمسة. فلم يبق منه شيئاً سالماً غير عين واحدة، لا أحد يعرف كيف، أثارت ضحكهم فأخذوا يلعبون بها مثل الأطفال في البداية، وقبل أن يصعدوا السلم إلى أعلى ألصقوها على الباب.

هبط منها خيط من الدم.

إنها عين ميتة لكن ما زالت فيها نظرة أخيرة هي آخر لحظة قبل الموت. نظرة فزع حقيقي، لكنها كامدة.

بغداد 2006

ماكنة الصور المرعبة

"شيء واحد في هذا العالم لا يهمني أبداً.

ما هو؟

-العالم نفسه!

هذا العالم يطاردني، حالة الطقس وعدد المؤخرات التي سوف تتشمس على شاطئ البحر. عدد السوتينات والكالسونات التي سوف تُخلع وترمى على حافة السرير. أنواع علكة المراهقات في رفوف "سوبر ماركت دليز". حبوب المخدرات. حبوب منع الحمل. حبوب الكآبة والضجر. حكايات العقلاء في عيادة الطب النفسي. حبوب طرد الملل، حكايات مكسورات الفؤاد من الحب في مجلة La vie. جنون اللاجئين في بارك ماكسميليان.

خلص...لا أريد أكثر. هذه البشرية هي غائط كوني سقط من السماء في يوم ليس فيه غيم ولا مطر، فلماذا تسأل؟"

كان محمود العلي يقود سيارته لزيارة طبيبه، في عيادة الطب النفسي، في بولفار سيمون بوليفار. طُرُق بروكسل كانت ذلك اليوم الشتائي نظيفة ولامعة. غطى الشارع ثلج خفيف في الفجر غير أنه اختفى فجأة بعد أن نشرت الشمس الخجولة أشعتها الشاحبة. لكن البرد ما لبث أن اشتد بعد أن اختفت الشمس خلف الغيوم الكثيفة التي تتجمع في سماء بروكسل طوال

العام من الظهيرة حتى أول ساعات العتمة. صورة محمود ظهرت في اليوم التالي في صحيفة المترو مقتولاً في جادة واترلو.

كيف وصل إلى هذا المكان؟

كان من المفترض أن يكون ذلك اليوم في بولفار سيمون بوليفار، في عيادة الطب النفسي، وليس قرب محل أحذية مستعملة في جادة واترلو.

قال أحد أصدقائه:

إنه على الأرجح له عشيقة في ذلك المكان، وقد أخفى هذا الأمر عن زوجته، لكنه لا يعرف إن كان له علاقة بالأمر أم أن مقتله هو انتحار محض.

"قبل عامين بدأت مشكلة محمود..." قالت زوجته. وشرحت بعينين دامعتين المشكلة وهي تمسك في يدها منديلاً.

"بدأت مشكلة محمود من لحظة تركه لعمله، في محل بيتزا نابولي في البورت دو نامور بسبب مشاجرة مع عنصري بلجيكي ومتطرف."

ولكن ضابط الشرطة باترك لم يفهم من "السيدة آن العلي" لِمَ لم يجد محمود عملاً آخر فيما بعد، طالما هو ماهر، كما تقول، في صناعة البيتزا وكأنه إيطالي. ذلك أنه جلس في منزله في جادة إكسل، فترة طويلة عاطلاً عن العمل، ولكن في يوم من الأيام قرر إيجاد عمل آخر غير عمل البيتزا والتظاهر أمام الزبائن بأنه إيطالي، ولفظ كلمات مثل بلا سنيوريتا، وبون بتيتو، وبيني، وهو أن يكون مشغل أو مصلح مكائن.

فأخذ يقرأ في موسوعة سميكة عن المكائن وطرق تشغيلها، اشترته له زوجته آن من مكتبة تروبيزم في غاليري دي رين. وفي لحظة حينما كان يقرأ في الموسوعة في شرفة منزله، صرخ محمود على زوجته "آن" وكبّ

..م النبيذ الأحمر على قميصه الأبيض...قال لها أنه شعر كما لو أن ماكنة ..خمة، ليست بلدوزر بالتحديد بل ماكنة بين الكرين لرفع الأنقاض وماكنة ..سليع شفرات الحلاقة، تستولي على عقله.

بعد أيام تطور الأمر كثيراً، بدأت هذه الماكنة تزوده بصور أوتوماتيكية ..و لا يريد أن يراها، مشاهد متنوعة ومتناقضة، أبشع ما فيها هي صور ..روب قديمة، صور موتى، مذابح تاريخية، جرائم قتل عادية، مشاهد ..عذيب، بل كل مصائب هذه الدنيا.

محمود العلي لاجئ عراقي، شاب في الثلاثين من عمره، قدم على ..روكسل منذ عشرة أعوام. عبر بحر الموت بقارب، ومشى في أوربا مطارداً ..ن بلد إلى بلد حتى وصل إلى هنا. بعد عام درس الفلامانية وتعلمها، ثم عمل أربعة أعوام في مطعم للبيتزا تملكه سيدة إيطالية من نابولي اسمها إيزابيلا، وتزوج من آن، كان اسمها آن بوكسن، فتاة جميلة من كوترك، تحولت إلى آن العلي، حياته معها هادئة من دون مشاكل أبداً، حتى شعر أنه نسي ماضيه تماماً ولم يعد ذاته اللاجئ الذي جاء إلى بلجيكا.

لكن النقطة الفاصلة التي حدثت في حياته وغيرت مجراها هي بعد أن ترك عمله، شعر حينها أنه منبوذ على نحو ما، وفي ساعات الخلوة الطويلة حيث يبقى وحده في المنزل تهيمن عليه مشاهد وصور تزدحم في عقله حتى تشله، صور لا يريد أن يراها لكن ماكنة توليد الصور لا يمكنه إيقافها.

في صباح أحد الأيام وهو يستلم مع إعلانات دليز ونشرات الدعاية المجانية، التي توضع غصباً عنه في صندوق بريده الموضوع في الباب، رسالة من التأمين الصحي، تقدم له خيارات المصحّات النفسية التي يمكن أن يتعالج بها، أخذ الرجل يتأمّل وجهه في المرآة.

إنه من لحم ودم وليس من حديد ورصاص، فقد قبض عليه يوماً في بغداد مع مجموعة من الأصدقاء من قبل مليشيات دينية وحكم عليهم بالموت، أطلق الشباب الملتحون الذين يرتدون ملابس كاكية ومرقطّة الرصاص عليهم، قتل الآخرون لكنه نجا فلم تصبه رصاصة، وسقط معهم وضرّجته دماؤهم فتظاهر بالموت، يوماً كاملاً أمضاه مع جثث أصدقائه لا تصدر منه أية حركة، حتى شعر لأيام أنه ميّت. أصحابه شبان يشبهونه بكل شيء تقريباً، لديهم أمهات وآباء مثله، لكنه إلى الآن لا يعرف إن كانوا سيسامحونه أم لا، لأنه وحده الذي نجا من المذبحة. لدى محمود أفكار غامضة عن التسامح والنسيان لكنها لا تفسر قسوة الحرب ولا الموت العبثي لشبان يُقتلون لأنهم بلا لحى. وآخرون يتحولون إلى قتلة بمجرد أن يطلقوا لحاهم ويرتدوا ملابس كاكية أو مرقطة.

"لا أحد يختار حياته بنفسه..."قال له الطبيب النفسي الذي يرتدي نظارة ويشبه باستور.

"هذا أكيد." قال محمود للدكتور البلجيكي. "ولكن هل لديك أجوبة أخرى، أجوبة من تلك التي لا أعرفها؟"

بعدها توقف تماماً عن الذهاب إلى المصحة.

قالت له زوجته إنه لا يحتاجها طالما هو يضاجعها ثلاثة أيام على الأقل في الأسبوع، وهو طيب وودود معها والجيران يحبونه فهم لم يشعروا بأي من أعراضه.

زوجته البلجيكية جميلة، أكبر منه بخمسة أعوام. لديها شقة واسعة في جادة إكسل، تعمل مساعدة اجتماعية في مركز رعاية اللاجئين في الشاتو، وهناك تعرفت عليه. غير أنهما مختلفان في شيء واحد فقط، هي تريد

إنجاب طفل بسرعة، قبل وصولها إلى الأربعين. لكن محمود يرفض الفكرة بحزم وصرامة نادرتين. فهو لا يعتقدها هذه الأيام صائبة، وأراد أن يفهمها بكل قوة أن أوربا مقبلة على أزمة اقتصادية مروعة، أكبر من تلك التي حدثت في الثلاثينات، هذا ما أخبرته به ماكنة الصور التي تستحوذ على رأسه، وسوف يتحول الأوربيون إلى فقراء ومشردين، وهو لهذا السبب لا يريد لطفله مصيراً أسوأ من مصيره عندما كان في العراق.

أو سيصدم الأرض جرم سماوي كبير، أكبر من الأرض بتسع مرات، ويحيلها إلى شظايا متطايرة في الفضاء، ويتحول الابن إلى قطعة لحم مع نيازك تائهة وهائمة في المجرات. وهو أمر مؤكد لا بفعل ماكنة الصورة التي تعمل ليل نهار في رأسه، إنما قرأ أشياء كثيرة في الصحف، وهو يرتعد، عن خوف العلماء من أجرام سماوية تقترب من كوكب الأرض، لكنها تغير مسارها بأعجوبة، فتفلت البشرية من دمار محتوم.

أو سيحكم النازيون مجدداً في أوربا، وسوف يشوون أبناء العرب بالأفران، فاليمين المتطرف يصعد كل يوم درجة في الحياة الاجتماعية والسياسية ولن يكون بمنأى في يوم ما عن السلطة.

*

زوجته "آن" لا توافقه على أفكاره السوداوية المروعة، فهي أوربية مؤمنة أن العلم والعقلانية هي ضمان السلام في أوربا لقرون قادمة، وهي سعيدة بحياتها المستقرة، حيث تستقل كل صباح المترو أو الترام وتذهب إلى العمل، تشبع ولعها بالتنورات القصيرة والوشوم، والبرسنغ، وتضع عقداً على عنقها اشتراه لها من المبلغ الذي يحصل عليه كلاجئ من المساعدات الاجتماعية. وهو عبارة عن مصباح علاء الدين يذكرها دائماً بالمكان الذي

جاء زوجها منه. وهي تتعلم العربية في المساء وتستمع إلى الأغاني الشرقية كي تصبح قريبة أكثر منه.

لكن كل هذه السعادات الصغيرة في منزله لم تنجه من التفكير بموت تراجيدي محتوم هنا في بلجيكا بواحدة من هذه الاحتمالات: إما بالموت بسبب حادث اصطدام مع سائق سكير ومتهور.

أو من سكين تشهر عليه في الظلام من يميني وهو عائد في الليل سكراناً إلى منزله.

أو من مهاجر لم يجد طريقة أخرى لشراء المخدرات غير تسليب مهاجر مثله.

أو الموت بسبب اصطدام أحد الأجرام بالأرض.

*

تستبد به بعض الأحيان: رغبة وحشية، في أن يملك منظاراً، ويراقب الأجرام السماوية التي تبعد آلاف السنوات الضوئية، لئلا يفلت منها جرم أرعن ويصطدم بالأرض. أن يرصد كل حركة غريبة من كائنات فضائية تراقب الأرض، وستهبط في يوم على سطحه وتستغل البشر، وتقلب أنهاره إلى أنهار حمراء من دم متجمد.

في يوم أخبر "آن" أنه رأى عشرة كائنات غريبة من نافذته، أحدهم يقف عند منزل راق على مقربة من المترو. رأسه على هيئة كأس، ويصدر الأوامر. وهنالك عمارة زجاجية شفافة كما لو صنعت من الماء. قربها منازل طابوقية وبارات فارغة. الكائنات العشرة تتحرك وفق تعليمات صارمة. تقترب من المترو لكنها لا تدخل، ثم تحصل على الأوامر فتغزو العمارات الشفافة

المصنوعة من الماء. وتخرج منها بأسلحة فتاكة لتنفذ الأوامر، لقد عرف ذلك اليوم بصورة لا لبس فيها، طبيعة التهديد بانقراض الكائن البشري، أو حقيقة اختفاء هذه الأرض.

-إلى هذا القدر أن الأرض مهم وجودها؟ حالة شعرية هذه الأرض إنها استعارة مثل الاستعارات في اللغة أكثر مما هي حقيقة.

هكذا كان يفكر محمود وهو يقضي ليلة رعب. زوجته تنام في الحجرة وهو في الصالة يفتح النافذة يدخن ويراقب الفضاء لئلا يقفز أحد الكائنات من أعلى ويخرب سلام الأرض.

ولكن من أين للأرض هذا السلام؟

إنها اكتشاف بسيط في مجرة ضخمة، هي محض شعوذة من ذرات وإلكترونات، والأخطار المحتملة هي بسبب هذه العشوائية التي انجمعت فيها مكوناتها. فالذعر من زوالها ليس مبرراً. إنها تراب قادم من مروحة الأفكار التي شغلتها ماكنة صور الموت والحرب في رأس محمود لا أكثر.

لقد شعر محمود بالتعب. بالاستنزاف. لا يمكنه أن ينظر بصفاء وهدوء إلى هذا العالم. الأصوات في الخارج تزعجه، صوت عجلات المتورسكلات في الشارع، صوت الترام قرب منزله وهو يقرع الجرس، صوت محرك الطائرات القادمة من مطار زفتان في سماء بروكسل، ماذا يصنع؟ هل يصرخ، يبكي، هل يقبل أيدي المارة الذين يتكلمون بجهاز الموبايل ويصدرون أصواتاً مزعجة، أن يتوقفوا عن الضجيج؟

في يوم كان يتوسل طبيبه النفسي بإذلال كامل أن يوقف هذه الماكنة التي في رأسه، أن يعطلها. فهي تنتج صوراً غريبة لا رابط بينها، ماكنة لا تتوقف عن إنتاج جمل عشوائية عن الموت والحياة. عن الجنس والبوليت.

عن نشرات الدعاية لدليز و الآلدي ورسائل محلية أكسل. عن الغوفر والقمل. عن السكارى في محطة النورد وصورة رئيس المحلية في الانتخابات. عن بيرة اللف ووشم يميني متطرف مكتوب فيه: **Ik haat Arabieren**[1].

صور متناقضة في رأسه لا يعرف كيف يوقفها. يشعر ساعات بأنه تحول إلى دجاجة حية وضعت في فرن. أو قرد يضربونه على مؤخرته بلوح من الخشب المسمر.

قال له الطبيب مرة:

-العالم ليس رموزاً. العالم حقائق.. كان المطر ينهمر في الخارج. الطبيب يبتسم وفي يده خوخة ناضجة. العالم ليس رموزاً، هذا العالم حقائق مشفرة تنتجها ماكنة ضخمة في رأس الله، واحدة مصغرة منها في رأس محمود. هذا هو العالم. خدعنا الفلاسفة والأطباء الذين يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. هنالك إله مصنوع من رأس مذهب ومؤخرة فضية يتحكم في هذا العالم.

يصبح محمود أحياناً عقلانياً مثل آن، وأحيانا أخرى تسيطر عليه ماكنة تصنيع الصور المرعبة فيغرق هذا العالم بالحروب والفيضانات والزلازل.

ضحك محمود، لقد عرف أنه ليس وحده المذعور في هذا العالم، إنما أكثر الناس مثله، يعيشون عيشة الفئران، يعيشون في مطاردة دائمة وبكوابيس شريرة ومشاهد مرعبة. لا جمعيات الدفاع عن المذعورين يمكنها أن تهدئ روعهم ولا صلوات الأمهات الطيبات القلب، ولا المعافون أصحاب الأمزجة الهادئة يخلصونهم مما هم عليه، حتى النوم لم يعد مأمناً مريحاً

(1) جملة بالهولندية تعني أكره العرب، يستخدمها اليمين المتطرف

.. كوارث النهار، فقد تخللته الكوابيس والأحلام المزعجة، لا شرب الكحول ولا الحبوب المهدئة قادرة أن تعفيه من الخوف من كل حركة في الشارع، حتى القطة التي تبحوش في كيس الزبالة وهو عائد إلى المنزل، تثير رعبه.

قال لـ"آن": لا أستطيع أن أوقف هذه الآلة التي تولّد الصور في رأسي، إنها تتدفق مثل ماء ساخن وتغزو عقلي، أقف على ناصية الطريق مثل موزع الصحف المجانية تختفي الوجوه وتظهر محلها أنياب ودبابيس وأظافر، تتحول وجوه البشر إلى وجوه حيوانات، حتى المؤخرات الجميلة تنفتح مثل بالوعة كي تبتلعني. هذه الماكنة لن يوقفها شيء إلا إطلاقة مسدس ويتم تعطيلها.

*تقرير الشرطة يقول أنه أثناء ذهابه إلى عيادة الطب النفسي في بوليفار سيمون بوليفار حرف سيارته وذهب لصديق يقطن في جادة واترلو لاستعارة مسدس منه، توقف بسيارته في زاوية بعيدة من محل بيع أحذية مستعملة تديره عجوز بلغارية تعيش في بروكسل منذ عشرين عاماً، وأطلق النار على رأسه.

قالت آن:

أنا أشك أن ينتحر محمود، إنه لا يؤذي أحداً، ولا يمكن أن يؤذي نفسه. على الأرجح أنه تعرض لحادث قتل من أحد العنصريين الذين كانوا يطاردونه.

كتب طبيبه النفسي على الملف:

أخيراً تمكن محمود من إيقاف ماكنة الصور في رأسه، من دون مساعدة، لقد أوقفها بنفسه. وأغلق الملف.

بروكسل 2009

جريمة جندي المخابرة

سادتي الضباط اسمي جمال أحمد، أعمل كجندي مخابرة في وحدة الاستطلاع العميق رقم 312، المقابلة للعدو الأميركي في الجنوب.

أعترف أمامكم وأنا بكامل قواي العقلية، بأني قتلت سالم حسين، عريف المخابرة في وحدتنا، سحبت مسدسي وأصبته برصاصة في رأسه، لأنه ببساطة خائن، وعقوبة الخائن هي الموت.

أنا لا أنكر هذا الأمر أبداً، ومستعد للدفاع عن فعلتي هذه مهما كانت عقوبتكم لي.

فقد حكمت عليه بالموت ونفذت قرار الحكم بنفسي وبسلاحي. ذلك أني أثناء دخولي حجرة المخابرة قبضت عليه وهو يخاطب أحد ضباط الاستخبارات في القوات الأميركية، ظهر يوم الاثنين، فلم أحتمل لسانه المملوء بالقذارة والوحول، فسحبت مسدسي العسكري، براوونغ عيار 9 ملم، وأطلقت عليه ثلاث رصاصات، صوبتهن جيداً على بدنه، حيث استقرت واحدة في جبينه، وواحدة في قلبه، وواحدة أطلقتها على خصيتيه.

أردت أن أخصيه لأن الخائن ليس رجلاً، بل عليه ألا يموت رجلاً هكذا هي أخلاقنا نحن العرب، الشرف والأرض أولاً، من خان الشرف عليه أن يموت بلا خصيتين ومن خان الأرض عليه أن يموت بلا قبر.

سادتي الضباط أنا لم أظلمه بهذا الأمر أبداً، فقد تعذبت وفكرت كثيراً قبل أن أقدم على قتله. حتى فقدت القدرة على النوم، منذ شهرين وأنا لم أذق طعم النوم مطلقاً، حتى عقدت له محكمة بيني وبين نفسي، بل وضعت له محامياً بخيالي، ولكن في النهاية استنتجت أنه خائن، وعقوبة الخائن لا محالة هي الموت.

أرجوكم سادتي الضباط لا تظنوا خيانة عريف المخابرة في وحدتنا غامضة، فقد دخلت عليه مساء الثلاثاء، ووجدته يتصل بالأميركان ويعطيهم إحداثيات ومواقع عسكرية كثيرة، لقد سمعته بأذني هاتين اللتين سيأكلهما الدود بعد موتي، ونظرته بعيني هاتين وهو يخون أمامي دون أن يرف له جفن على ما فعل.

إنه جاسوس ببساطة، وحين واجهته بالأمر اعترف بأنه جاسوس يعمل لصالح الأميركان، ولكنه ندم على فعلته أو خاف من الوشاية به، فطلب مني أن أطلق عليه رصاصة واحدة في رأسه، وهي رصاصة الرحمة، فسحبت مسدسي براوننغ 9 ملم وأطلقت عليه رصاصة واحدة. فسقط صريعاً.

نعم لقد كانت رصاصة واحدة في الرأس كافية لمقتله، ولا أعرف عن أمر الرصاصتين الأخريين، فلم يكن بحاجة لرصاصات أكثر كي يموت الخائن، فلا عقوبة للخائن غير الموت، كما تعرفون، ولا أظن أن أحداً في هذا في العالم أجمع يتنكر لذلك.

هذا أمر يعرفه كل شخص شريف، وأنا كما عرفتموني جندي شريف وشجاع، لذا لم يحتمل شرفي العسكري أن أجد خائناً في وحدتنا وجاسوساً للأميركان، ولا أنفذ فيه حكم الموت، فالأمر لم يكن غامضاً أبداً، كما شرحته

الم، لقد دخلت عليه في غرفة المخابرة ورأيته يضحك ويتكلم باللغة الإنكليزية، مع ضابط أميركي، فواجهته بالأمر. إلا أنه أنكر، قال إنه يتحدث مع عريف في وحدة الأشغال اسمه عادل، يتمرن على الكلام بالإنكليزية مثله، فعرفت أنه يريد خداعي، وفي تلك اللحظة لم يكن سادتي الضباط مسدسي معي، ولكني نظرت إلى الجهة اليمنى من جهاز التومسن فلحظت مسدسه، ماركة براوننغ عيار 9، موضوعاً على الكرسي، وقد شعر بالخطر، وقبل أن يبادر ويتناوله، هجمت على المسدس وانتزعته عنوة منه، تراجعت خطوتين وهو باهت أمامي فأطلقت رصاصتين صوبه، واحدة أصابت قلبه والأخرى على خصيتيه، لأن الخائن ليس رجلاً!

لا أعرف عن أمر الرصاصة التي أصابته في رأسه.

كان جندي المخابرة وحيد قد دخل مباشرة بعد أن سمع الرصاصة التي انطلقت وشاهد الخائن صريعاً وأنا بيدي المسدس، وهو شاهد على أية حال، وأظنه قال لكم إنه دخل المكان بعد أن سمع الرصاصة ووجد العريف مقتولاً.

لكن ما ذكره فيما بعد ليس دقيقاً، فأنا لم أكن داخل الحجرة وقتها، كنت أسير في الممر المؤدي إلى حجرة الضابط، ومررت بحجرة المخابرة بالصدفة وسمعت العريف سالم يطلب مني الدخول، وحين دخلت رأيته يبكي ويرتجف، سألته ما به قال إنه خان وحدته العسكرية ولوث شرفه العسكري، فقد أعطى الأميركان إحداثيات مهمة كي تقوم الطائرات الأميركية بقصف القوات العراقية لقاء مبلغ من المال، وقد ندم على ذلك وقرر أن ينتحر. فسلمته مسدسي العسكري، أخذه مني بكل ثقة، وقف أمامي واضعاً

المسدس في صدغه وأطلق رصاصة واحدة، وسقط صريعاً والمسدس بيده، فدخل جندي المخابرة وحيد الذي كان يدخن خارج غرفة المخابرة فوجدني هناك واقفاً من دون سلاح، وعريف المخابرة سقط صريعاً وبيده المسدس.

أنتم تعرفون سادتي الضباط أن الجندي وحيد شخص جاهل، لا يقرأ ولا يكتب، فلاح من الجنوب لا يفهم الانكليزية ولا يعرف إذا كان عريف المخابرة يتكلم مع الأميركان أم مع جندي في وحدة الأشغال مع أصدقائه، لكن هذا الأمر لا يخدعني أبداً، كنت أقف قريباً من غرفة المخابرة فسمعت أصوات غريبة ومشاجرة في الداخل بين عريف المخابرة سالم والجندي وحيد حيث كان عريف المخابرة يتسلم برقيات مجهولة المصدر على الأرجح من الأميركان، وأثناء المشاجرة انطلقت رصاصة المسدس من الجندي وحيد، وأصابت عريف المخابرة بخصيتيه، ذلك أن الجندي وحيد يتهم عريف المخابرة بقيامه بعلاقة مع زوجته عندما أرسل بيده مبلغاً من المال قبل شهرين، فاستغل الخائن هذا الأمر وعقد علاقة مع زوجة الجندي وحيد، وهذا ما أكده الجندي وحيد نفسه.

أنتم تعرفون سادتي الضباط أن الجندي وحيد يكذب حينما قال أن عريف المخابرة لم يكن يتكلم مع الأميركان، وقال إنه هو الذي كان في الواجب، وكان يتكلم مع جندي يعرفه في فصيل الأشغال، وأن العريف سالم كان نائماً، ودخلت أنا وأيقظته واتهمته بأنه أقام علاقة مع زوجتي حينما أرسلت بيده راتبي أثناء إجازته الدورية لها.

فالأمر ليس كذلك، أولاً هي ليست زوجتي إنها زوجة الجندي وحيد وهو

الذي اتهمه بالخيانة، لكن فيما بعد اكتشفت أنه كان يتكلم مع الأميركان بالإنجليزية وهكذا سادتي الضباط، فأنا لم أخرق القانون إنما طبقته، جزاء الخائن هو الموت، وحينما قبضت عليه وهو يخون الجندي وحيد ويتجسس لصالح الأميركان أخذ يتلعثم في بداية الأمر، ثم أنكر بصورة قاطعة، فتصور أني سأسامحه، قلت له أنا ليس لدي أي ثار معك، ولكن هنالك من سيطبق القانون عليك، فناولت الجندي وحيد مسدسي، وقلت له خذ بثأرك، فهذا هو الذي لوث شرفك.

ما أن التفت العريف سالم حتى باغته الجندي وحيد برصاصة في قلبه، فتناولت المسدس من وحيد وأطلقت عليه رصاصتين واحدة وجهتها إلى خصيتيه كي يموت بلا رجولة، وواحدة على صدغه ليفارق الحياة.

هذا الخائن سادتي الضباط يستاهل الموت بلا رحمة، هكذا هي قوانيننا، لم يكن بشراً، كانت قملة توجب دعسها!

سادتي الضباط أنا جندي شريف، لا توجد ذرة غبار على شرفي، لم أفعل أي شيء في حياتي في غير موضعه. الوقت خريف، وهذا العام هو الثاني في خدمتي العسكرية، وقد أرسلتم بطلبي لسببٍ لا أعرفه.

أنا لا أملك أي نقود، وليست لدي أية آمال، ولم أتصل أبداً بالأميركان، كل ما قالوه عني هو تشهير، افتراء، تشويه سمعة. لم أقتل عريف المخابرة سالم بسبب امرأة، والمرأة هي امرأتي وليست امرأة الجندي وحيد. فهو لم يكن هناك ولا أعرف من جلبه شاهداً. فهو لم ير أي شيء. لقد عشت سادتي الضباط إهانة مُطوَّلة، لقد خانتني زوجتي ولوثت شرفي بينما أنا هنا أدافع عن شرف الوطن. فاستحقت القتل.

أما عريف المخابرة فأنا لا أعرف من قتله، ربما الجندي وحيد، بسبب خيانة أحدهما وعمله كجاسوس لدى الأميركان.

أشياء كثيرة مرت عليّ لا أعرف معناها ولا أدري ما سببها. لقد عذبني عريف المخابرة طويلاً، قال لي من أجل أن تكون جندي مخابرة يجب أن يكون لك صوت خال من النشاز، يجب أن تفتح فمك وتنفخ من رئتيك كما لو كنت تغني، ليس من الضروري أن تحكي لكن عليك أن تعرف ماذا تحكي.

لقد هددني سادتي الضباط لأني لم أتقن عملي، قال لي أنه سيقتلني وسوف يرقص على جثتي القذرة، لقد كان يصرخ حينما أخطأ بنقل الرسائل مع الضباط، يبصق علي، يرفسني في بطني.

أنا جندي مسكين سادتي الضباط لم أنم من شهرين، من بدء الهجوم الأميركي علينا وحتى اليوم، لقد تحالف الجميع ضدي:

الزمن، القدر، الأميركان، عريف المخابرة وزوجتي.

بغداد 2004

حكاية المترجم الهندي التي رواها لي صحفي ميت

إلى الآن أكاد ألا أصدق هذه الحكاية التي حدثت معي.

كنت أعمل مراسل حرب لصحيفة أجنبية في مدينة البصرة المطلة على الخليج. وكنت أذهب كل يوم تقريباً إلى بار يفتح سرّاً في المدينة، ذلك أن المليشيات الدينية قررت إغلاق جميع البارات وحرّمت شرب الخمرة. وفي يوم قائظ من أيام الصيف ذهبت كعادتي في الظهيرة لأشرب كأساً أو كأسين من البيرة إلا أني وجدت البار مهدّماً تماماً، فقد وضعت فيه عبوة ناسفة من قبل أحد الفصائل الإسلامية، وأصبح ركاماً من الطابوق والأثاث. وكي أعثر على وسيلة أخرى، رحت أتسكع في الشوارع دون وجهة محددة.

كان الصيف ساخناً جداً، فلا أرى في أقصى المشهد، غير كتلة مضيئة تمتد جذورها من العمارات المحيطة بالكورنيش وتصل حتى المقبرة المحاذية للمدينة. وفي الخليج كان هنالك مركب يهتز بإيقاع ثقيل حيث تمتد أمامه غابة من أشجار النخيل، فالبصرة ميناء ثريّ بأشجار النخيل، أشبه ما تكون بالبندقية لكثرة القنوات المائية التي تخترقها. وفي الشارع، الذي اسمه الشيطان، لا أدري لماذا سميَّ هكذا، كنت أرقب خليطاً من كل الأعراق، فهنالك: عرب، أكراد، هنود، آراميون، وأفارقة، رجال ونساء من ديانات متنوعة، يبيعون سلعاً لا حصر لها، يغلب عليها الطابع الهندي، أو على الأقل هي من الفئة التي يجلبها الهنود أو يستوردها تجار المدينة من الهند، كالتوابل، وماء الورد والبخور بكل أنواعها. في الواقع، هنا تجد كل شيء، تجد في هذا السوق كل ما تتخيله، بل، تجد فيه كل ما ترغب به وما لا ترغب به أيضاً، إلا الخمرة، فقد انعدم وجودها بالمرة. الجملة الوحيدة التي تسمعها:

لا توجد خمرة أبداً، لقد منعها المسلّحون الدينيون.

غير أني في هذا اليوم الساخن كانت تستبد بي رغبة شديدة لشرب قنينة من البيرة، وكانت الرغبة تشتد كلّما تجوّلت أمام محلّات التوابل، ومحلات الأعشاب، ودكاكين البخور والعطور، وكنت أنثُّ العرق نثاً، بل كان يسيل من كلّ ناحية من أنحاء جسمي، وكان الظمأ يشتد بي، والرغبة بشرب قنينة من البيرة تشتد أيضاً.

في الطريق صادفت صحفياً كنت أعرفه بالوجه، ولكني لا أعرف بالضبط في أية صحيفة يعمل أو إلى أية مؤسسة ينتمي. كنت أعرف عنه شيئاً واحداً لافتاً هو كتابته عن سينما البوليوود، كان المتخصص الوحيد بالكتابة عن السينما الهندية. ولها في العراق عشاق كما لهوليوود عشاقها. لكنّ الشيء اللافت في رؤيتي له هذا اليوم أنه كان يسير بصعوبة بالغة، وقد غطّت ملابسه ووجهه طبقة من الغبار الأحمر، وهنالك آثار كدمات كثيرة على وجهه وعلى أنحاء متفرقة من جسمه. سألني:

"هل تعرف مكاناً هنا يبيع الخمرة؟"

قلت له: "أنا أبحث عن خمرة أيضاً."

قال: "أعرف منزلاً في نهاية شارع الشيطان يبيع الخمرة، اشتريت منه مرّة، ولكني لست متأكداً من المنزل بالضبط." وما أن سرنا بضعة خطوات سألته ما به، وما هذه الكدمات على وجهه. قال لي على عجل أن فصيلاً إسلامياً، غير معروف الهوية، قد ضربوه بقوة حتى أغمي عليه، أرادوا قتله لكنّه لم يمت. والسبب أنهم شاهدوه عدّة مرات مع مترجم هندي اسمه "راجا تشاندران" قدم مع الجيش البريطاني في مدينة البصرة في العام 2003. فشكّوا به جاسوساً فأرادوا قتله. وهكذا ضربوه حتى الموت، ظنّوا

أنه مات ولكنه ما زال حياً. قال أنه أفاق فوجد نفسه هكذا، فخرج يبحث عن خمرة.

وصلنا إلى المنزل، طرقنا الباب فخرج إلينا شاب في الثلاثين من عمره. قلنا له "إن كان أحد يبيع الخمرة هنا"، في البداية كان متوجساً منا. إلا أنه بعد برهة تعرّف على الصحفي الذي برفقتي. فقد اشترى منه مرّة فيما مضى، فأشار لنا أن نتبعه داخل المنزل. قال لنا أن لديه صندوقاً من البيرة ليبيعه. ففرحنا جداً، وتبعناه إلى حديقة منزله. وسط ذهولنا أخرج رفشاً وأخذ يحفر. من الواضح أنه دفن صندوقاً من البيرة في الأرض. لا أحد يصدّق فرحتنا حين رأينا قناني البيرة الخارجة من التراب. وعليكم أن تتخيّلوا أن درجة الحرارة قد تجاوزت الأربعين، وقناني البيرة مدفونة في الأرض، كادت على وشك أن تنفجر من الحرارة. ومع أنها أشبه ما تكون بسبب سخونتها بالبول، إلا أننا شربناها. وأخذنا بعض القناني معنا، أخفيناها جيّداً حتى وصلنا إلى سياج المقبرة، جلسنا هناك وأخذنا نشرب بيرة ساخنة جداً، وبرائحة قوية.

كان الميناء أمامنا، النوارس تخفق وتهبط إلى الماء، تظللنا أشجار النخيل، والمراكب تبتعد حتى تختفي في عمق البحر. وبعد أن أكملنا الشرب، أخذ هذا الرجل الذي لا أعرف اسمه يروي لي قصته مع المترجم الهندي الذي قدم إلى البصرة مع الجيش البريطاني في العام 2003، وحكايته مع الفصائل الإسلامية المسلحة التي اتهمته بأنه يتجسس للبريطانيين طالما هو على علاقة بهذا المترجم الهندي. لم يكن هذا الرجل على ما يبدو سكراناً، ولكنه كان يتكلم بطريقة غريبة إلى حد ما موجهاً الكلام لي، ومع أن الألم يوقفه بعض الأحيان. إلا أنه يستمر في سرد حكايته:

اسمع أنا أريد أن أحكي لك هذه القصة التي حدثت معي كاملة. ولكي تطمئن أكثر أحب أن أقول لك أيضاً أنا أعرف من أنت. ولكن لا أعرف بالضبط في أية صحيفة أو مجلة تعمل، ومع ذلك لا يهم. وما تسمعه مني اليوم لا يصلح لأيٍّ صحيفة، ولا لأيّة مجلة، ولا لأيٍّ تلفزيون. لذلك أرجوك لا تفكر بنقل ما أقوله لك كتقرير، ولا حتى كخبر صحفي.

في الواقع لديّ رغبة كبيرة هذا اليوم أن أبدّد الشك الذي لحق بي بسبب معرفتي للمترجم الهندي المرافق للجيش البريطاني في البصرة. وأحكي لك حكايتي هذه لسببين اثنين. الأول: هو أني التقيت بك اليوم صدفة، ربما أنت لا تؤمن بالصدف ولكني أؤمن بها أكثر من إيماني بالآلهة. ذلك أن في الصدفة أحلاماً رائعة، بينما الآلهة ليست سوى كوابيس بلا خيال! الشيء الآخر الذي يغريني بأن أروي لك هذه الحكاية هي أني شعرت بأنك شخص ظريف لا تشبه أوجه الضفادع السابحة بالدم، أوجه رجال المليشيات الإسلامية الكريهة الذين قبضوا عليّ خارجاً من لقاء لي مع المترجم الهندي.

طيب ما أرجوه منك هو أن تصغي لي جيداً ولا تقاطعني أبداً.

بدأت يا سيدي حكايتي قبل عشرين عاماً، لقد تعرفت على هذا الهندي في البصرة حينما كنت جندياً في جبهة الحرب في البصرة. أما هو، فلم يكن مترجماً ذلك الوقت، كان عاملاً في سوق الهنود الشهير في هذه المدينة. كان السوق، ذلك الوقت، محطتي الدائمة. في الصيف يصبح كتلة بيضاء من النور بسبب الشمس الساطعة. والناس تتجول فيه بإيقاع واثق ثقيل، كأنهم لا يريدون العودة لبيوتهم أبداً. كنت أراهم يتجولون به كل النهار، وحين ينتهي، يعودون مرة أخرى إلى البداية، وهكذا!

أما مسقفاته التي تقيك حر الشمس فقد كانت تمتد حتى البحر. بل تمتد من ضفة نهر "العشار" حتى تصل شارع "أبي الأسود"، ويمكنك أن ترى على الجانبين أجمل دكاكين الصاغة، وأثرى الصيدليات، وأجمل دكاكين التوابل. بل ترى كل أنواع التجار هناك، من باعة الحبوب، إلى القصابين إلى باعة الكتب. أما الفنادق فهي الأجمل في المدينة ذلك لأنها مبنية على الأغلب من الإسمنت والحجر، وعلى واجهاتها الزجاجية تتعرش نباتات الظل بحمرتها الباهتة.

اسمه سوق الهنود. هل سمعت من قبل باسم أجمل من هذا؟

والسبب في تسميته سوق الهنود، ببساطة شديدة لكثرة السلع الهندية التي فيه.

فهنالك أنواع السلع الهندية التي يجلبها بحارة هنود، أنصاف عراة، على لنجات مكشوفة من بومباي وحتى خليج البصرة. تتكون بضائعهم من أشياء مختلفة، مثل التوابل، وماء الورد، ومطيبات الأطعمة، وهنالك صناديق كبيرة من العنبة الطازجة، والبخور، وتمر الهندي، بل تجد فيه كل شيء حتى الأقمشة... وربما يمكنك أن تتخيل مشاعري وأنا أتجول في هذا السوق، ومشاعري وأنا أتسكع أمام محلاته، وأتشمم روائحه. وكنت آأسف لأن الهنود قد اختفوا منه كلياً، إلا راجا تشاندران الذي كان يعمل في دكان معروف للتوابل. فلم يكن مترجماً ذلك الوقت، بل كان عاملاً بسيطاً لدكان توابل يملكه تاجر آثوري اسمه سركون. كان هندياً بسيطاً بلحية طويلة، وعمامة كبيرة، وقميص أبيض. نحيفاً مثل سيخ، أسمر مثل عجينة محروقة، وله ساقان مثل ساقي العصفور.

أتذكّر جيداً ذلك اليوم الذي تعرفت فيه عليه، كان عصر يوم جمعة.

لقاؤنا كان في غاية البساطة والوضوح، لقاء إنسانين عاديين تحت مسقفات السوق. لا علاقة له لا بالاستعمار ولا بالإمبريالية ولا بالتأريخ. ربما كنت وقتها أخلط بين حقيقتي الشخصية وحقيقة العالم، لأن الله لم يستيقظ في قلوب المؤمنين فجأة كما هو اليوم مع الفصائل المسلحة. ولم تكن ذكرياتي في تلك المرحلة مثقلة بالعداء كما هي الآن. كنت بريئاً لكن ليس من دون اقتراف أي ذنب. وكان لقاؤنا كله، حول الشعر. حيث كان راجا يكتب قصائده بالأوردية ويترجمها إلى الإنكليزية بنفسه، وأنا كنت أكتب الشعر أيضاً بالعربية. ولكي أخفف عن مأساته، أخذت أترجم قصائده من الإنكليزية إلى العربية وأنشرها في الصحف أوان ذاك، وكان هذا الأمر يسعده جداً.

كنت مولعاً بالشعر، نعم. وكنت أنظر لكل شاعر مثل نبي. لم أكن أخش ذلك الوقت أن يحجب الشعر عني رغبتي في الهدوء. كان في نيتي أن أهرب من عالم الحرب، فخططت عبر الشعر عالماً متخيلاً من أجل التسلية وطرد الضجر.

رأيت راجا للمرة الأولى في السوق. كنت مسكوناً بزحام الناس ذلك الوقت وضوضائهم. وهذا الأمر يعرفه كلّ جندي. فالضوضاء التي تحيط بك والتي تضجرك الآن، تصبح كل مبتغاك حينما تكون جندياً، ولا سيما حين تغادر ساحة الحرب وتتجه إلى المدينة. لأنك ببساطة ستلتقي بعد فراق طويل بالحياة. هكذا كنت أعبر عن عبادتي للحياة في إجازتي الدورية. أسير بهدوء في السوق لكي أشبع من وجوه البشر ومن روائحهم ومن أصواتهم.

وفي يوم من الأيام، وبينما كنت أقضي أوّل يومٍ من إجازتي في السوق كالعادة قبل التوجه إلى القطار الذاهب إلى بغداد، شاهدتُ هذا الهندي

...استه ولحيته الطويلة وقميصه الأبيض. كان يبيع لأحد الزبائن بعض
التوابل. وما أن انتهى عاد ليجلس متربّعاً على الأرض، فتح كتابه وأخذ يقرأ
...ست أخرس. كان هندياً أصيلاً، باللحية والعمامة السيخية والقميص الأبيض.
لا مثل الآخرين الذين حلقوا لحاهم وارتدوا اللباس الأوربي. وما ضاعف في
الحدث ذلك اليوم هو أنه بينما كان جالساً في الدكان يقرأ بكتابه، أخذ
خيطٌ من شعاع الشمس يتسرّب من ثقب في سقف السوق ويهبط على
حافة عمامته. لقد كان أشبه بنبي أو فيلسوف، بل أقول لك جعلني أرى فيه
شخص طاغور الشاعر الهندي الذي زار بغداد في الثلاثينات. وبما أني كنت
مولعاً منذ ذلك الوقت بالأدب الهندي وبالسينما الهندية، توجهت نحوه.

*

هندي يجلس وسط دكانه، يقرأ بكتاب مكتوب بحروف غامضة، ويسقط
النور على حافة عمامته، يا إلهي، كان هذا المشهد بالنسبة لي أكثر قداسة
من مشهد نبي قام من القبر بعد ثلاثة أيام على رأسه هالة من الضوء.

وأنت تعرف كيف هو النور في هذا الوقت من الصيف في البصرة، إنه
يتدفّق تدفّقاً عظيماً بين جدران الأسواق، ويرسم على الوجوه خيالاتٍ وألواناً
متعددة. كل هذه الأسباب أجبرتني أن أذهب وأتحدّث معه. وقفت منسحراً
أمامه بينما كانت قطرات النور والألوان ترتعد على حافة أهدابي، وتترك
التوابل العطرية في الدكان في فمي طعماً لا ينسى.

راجا تشاندران هذا اسمه.

مهاجر غير شرعي في خليج البصرة، وما أكثرهم ذلك الوقت.

ولهذا الأمر قصة:

فقبل العام 1980 كان البحارة الهنود يجيئون بالمراكب من بومباي إلى خليج البصرة لجلب التوابل وبيعها في سوق الهنود. هذا التقليد يمتد في التاريخ قديماً، لا أعرف منذ متى، وإلى ذلك اليوم، أي قبل يوم من نشوب الحرب العراقية الإيرانية لم يستطع أحد أن يوقفه. إنهم يأتون في جونكات، أو مراكب طويلة، عليها هندي أو هنديان يجلبان البضاعة من بومباي إلى خليج البصرة يبيعانها ويعودان.

فجأة اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، وقد أغلق الخليج تماماً. ولم يعد مسموحاً لهم بالعودة مرة أخرى إلى البحر. مراكبهم احتجزت في خليج البصرة، لم يصدقوا هم أول الأمر، لقد ظنوا أنهم سيعودون سريعاً إلى بلادهم، لم يدر في خلدهم أن الحرب ستستمر ثمانية أعوام!

وقد منعتهم السلطات أوان ذاك من دخول المدينة، لأن شركاتهم رفضت تسفيرهم بالطائرات على حسابها. وهكذا كانوا يمضون أيامهم على سطح مراكبهم أمام الشاطئ، حيث كانت المدافع تخطأ أحياناً أهدافها فيسقط منهم قتلى كثيرون. ولكن بعد عامين من بقائهم هكذا سمحت الحكومة لمن تبقى منهم على قيد الحياة، بدخول البصرة، ومنهم راجا تشاندران.

هكذا جاء إذن إلى البصرة. وصل على ظهر مركب طويل محمل بصناديق البخور والتوابل.

يا ما تخيلت مجيئه ذلك اليوم الى البصرة، أجمل مدن البحر. إذ هبط هذا الهندي في مدينة تغطيها غابات النخيل من على ظهر مركب طويل محمل بالتوابل، في أحد النهارات الآسيوية الساخنة. فالنهارات الصافية في الصيف في خليج هذه المدينة جعلها أقرب إلى صورة مدينة آسيوية منها إلى مدينة شرق أوسطية، فالشمس الساحلية التي تسقط عمودية تذكر

ـاسيا أكثر مما تذكر بالمتوسط.

وراجا النحيف مثل قصبة، جاء على ظهر عبارة محملة بالصناديق، من بومباي فرأى للمرة الأولى في حياته خليج المدينة العربية. وسمع حينها جلبة البحارين، وصراخ النوارس، وفوضى الحمالين، والشحاذين، وزعيق الكناسين! مخلوطة مع صوت البضائع المسحوبة على رصيف التحميل.

ما يميزه عن السكان المحليين هو جسمه الصغير، وجهه الأسمر، ساقاه الرفيعتان الظاهرتان من تحت وزرته الواسعة، وصدره العظمي الظاهر من قميصه الأبيض المفتوح، وعمامته الكبيرة المربوطة في لحيته الغزيرة الشعر.

*

آه لو أزور بومباي مرة واحدة فقط في حياتي! هذه رغبة عظيمة في قلبي يا سيدي، هذه رغبة لا يمكنك أن تتخيل نبضها ولا تأججها الحارق!

هل تصدق إن قلت لك أني حلمت أن أرحل هذه الرحلة نفسها ولكن بالطريقة العكسية. أذهب من البصرة إلى سواحل بومباي، على ظهر مركب محمل بصناديق التمر. وأتعرف هناك على شاعر، وهو في الوقت ذاته جندي في الحرب الهندية الباكستانية. ألا ترى أن تواريخ العالم متشابهة؟

أهبط من المركب مثلاً، فتتراءى لي الأحياء الفقيرة في بومباي وهي منكشفة بنور ضعيف وسط العتمة، فأشعر بالشعور ذاته، كما لو كنت أسير في شارع من شوارع البصرة. أسير في الحقول الترابية مبتعداً عن الساحل، تحفّ بي أشجار الجوز السامقة، وأشجار الموز الخفيض، كما كانت تحف بي أشجار النخيل والبرتقال في البصرة. أشمّ الرطوبة كما هي في المدينتين الآسيويتين. أشعر ببلل في الظل بسبب رطوبة الرياح الموسمية الغامرة،

الأفق المشبع بالخضرة، السماء اللاظية فوق الساحل. خرائب المدينة الملتحفة بالتراب، الشبيهة بالبصرة من حيث الأحلام والبؤس والذهب، وأخيراً، النور الذي يتدفق تدفقاً عظيماً بين أكوام الحجارة.

هكذا كنت أحلم، والأكثر من هذا كله، كنت أحلم أن أبقى عدة سنوات هناك، كما بقي راجا تشاندران في البصرة. أن أُمنع مثلاً بسبب الحرب أيضاً، من العودة إلى البصرة. فأصبح هندياً عادياً. أضطجع تحت ظل شجرة جوز عملاقة، بلحيتي الغزيرة الشعر، وعمامتي البيضاء، أقرأ بكتاب مكتوب باللغة الأوردية، أغمض عيني على صوت موسيقي يعزف قربي على الناي، فتحوم حول لحيتي الفراشات. أو أن أعيش مع زوجة هندية تشبه الممثلات في الأفلام الهندية في بيت من الخوص، أنام على إزار أخضر مزركش بالأحمر عند أطرافه، وفي العتمة الخفيفة أشم رائحة الورق والتراب ورائحة بخور تدور في الشارع بشكل فائر.

آه كم جميلة هي بومباي!

*

أما كيف أمضى ليلته الأولى، ففي الواقع لم تكن السلطات تسمح لهم بدخول المدينة، إنما يسمح لهم التجول فقط في الميناء. وهنالك بعض الكابينات الصغيرة التي أنشأتها لهم شركاتهم على الساحل، محاطة بسور منخفض من الطوب، عند أرض مزروعة بالنخل، تستخدم للمبيت من قبلهم.

ربما تطلع راجا إلى البحر المزدحم بالمراكب، البحر الذي يقود إلى المحيط الهندي، والذي يسميه الهنود من القارة الهندية ببحر العرب! وقد أدرك أن أرض التوابل هناك، وراءه، وقد جلب إلى البصرة التاريخية بعضاً منه. ربما رأى الغشاء الفضي الرقيق الذي يغلف البحر، هو يتطلع إلى الماء

الذي يزبد على الضفة. وربما فكر راجا تشاندران بالبصرة، كما فكر بها ...ات علي في كتابه "سفر نامة حجاز الهند"، أو زاد محمد عمر علي خان ...ابه "أرض الله"، أو عبد الماجد دريابادي، أو إشفاق نقوي بـ "الأراضي العربية المقدسة".

وقد قال لي إنه في اليوم الأول لوصوله هبط بعد الظهيرة إلى البحر و...ال جسده، وقد ترك عمامته أمام الكابينة لتسفعها الشمس. ثم جلس في المساء ليستمتع ببرودة هواء البحر، وفي الليل تمدد على إزار أحمر مفروش على الأرضية، توسد يده ونام. وحين استيقظ في اليوم التالي وجد ...سرة أخرى.

في الفجر، قبل طلوع الشمس فز مرتعباً على صوت انفجارات تدوّي على الساحل. نهض سريعاً من مكانه، تناول عمامته البيضاء الموضوعة قرب الإزار ووضعها على رأسه، تناول الإزار بيديه ولفَّ به جسمه وهرع نحو الساحل، رأى الجنود العراقيين بزوارقهم الحربية التي نصبوا فوقها الرشاشات، يعبرون شط العرب إلى الضفة الأخرى، رأى البوارج وهي تدير مدافعها نحو الضفة، رأى شاحنات عسكرية تشخر في الطين، ومدفعية ترمي على الساحل.

ارتجف من الخوف ... وتساءل في نفسه ماذا يصنع؟

بحر ناصع ومضيء، بومباي بعيدة، ونيران تشتعل على الضفتين بلهب أحمر كثيف، مراكب مأسورة عند الرصيف بالحبال ودخان أسود يتراقص في الضياء، يصعد بصورة ملتوية ويختفي في الأفق.

عاد راجا مع بضعة هنود آخرين إلى الكابينة، جلسوا على الأرض وقد اضطربت أجسادهم السمر وعمائمهم البيض من الخوف، جلسوا متقابلين

وقد لفوا أجسادهم العارية بالفوط، ماذا يصنعون؟ كانوا حائرين. في اليوم التالي هرعوا راكضين من الكابينة إلى الرصيف حيث تصطف مراكبهم، لم يكن الطريق بطبيعة الأمر آمناً وهم يسيرون بين جذوع النخيل، وأزيز الرصاص فوق رؤوسهم. توقفوا عند الضفة، ثم هرعوا راكضين إلى مراكبهم، صعدوا إليها وتأهبوا للرحيل. لكن البوارج الحربية أطلقت لهم إشارات تحذير، ثم تقدم منهم أحد الضباط وأفهمهم بأن الحرب قد اندلعت مع إيران وإن البحر قد أغلق بوجه الملاحة.

شي آخر: البواخر الكبيرة رفعت أعلام بلدانها وشقت البحر بصورة هادئة. أخلاق الكبار!

المراكب الصغيرة رست في زاوية ما من الخليج، حيث انتقل قباطنتها وبحاروها إلى بغداد لتسفيرهم إلى بلدانهم. أما الفقراء الهنود فحتى الله تخلى عنهم.

طلبوا منهم أن يبقوا على ظهر مراكبهم ريثما تنتهي الحرب! مشهد ساخر أليس كذلك؟ ولا سيما إذا عرفنا أن الحرب استمرت ثمانية أعوام.

هكذا استسلم هؤلاء المساكين لقدرهم. فجلسوا على الساحل فزعين فزعاً غامضاً، مروعين من شيء لا يعرفونه، وكانوا يتناقصون يوماً بعد يوم، لأن المدفعية التي تقصف الساحل تخطأ أهدافها بعض الأحيان فتصيب الهنود المتجمعين عند مراكبهم فتطفو جثثهم في الماء.

*

كان راجا مثله مثل أي هندي في نيودلهي أو لندن أو بومباي يحب الألوان الصارخة!

وكان يشعر بالأسى والضجر والخوف لوجوده في هذا المكان، لقد وجد كمية من الأصباغ البويا الحمراء والصفراء والخضراء والبرتقالية بعلب صغيرة مرمية على الساحل، هي من مخلفات معسكر للجنود، فأخذ يستخدمها لصبغ المراكب، أخذ كل يوم يغير ألوان مركبه وألوان مراكب أصحابه من الهنود الآخرين.

يخلع قميصه تحت الشمس الصافية، يلمع ظهره الأسمر النحيف، ذراعاه الطويلان وساقاه النحيفتان الظاهرتان تحت وزرته الواسعة. يمسك الفرشاة ويطلي المركب بصورة منتظمة، بينما يلوح له البحارة الهنود بأيديهم وأذرعهم، فجأة تأتي قذيفة قد أخطأت هدفها وتسقط بين مراكبهم، فيتناثر أصدقاؤه الهنود في الماء: أيديهم مفتوحة، عمائمهم ملطخة بالدم، وأفواههم فاغرة. هنود يموتون في نهر آخر غير نهر الغانج.

*

لم يسمح لدخولهم البصرة إلا بعد سنوات. بعد أن تناقص عددهم بشكل كبير.

هكذا دخلوا البصرة...كانوا من الضعف والهزال أشبه بالشجر الأعجف في صحراء قاحلة.

لم يحصل على عمل في البداية. بل كانت حياته في الأشهر الأولى شاقة، كانت حياته مثل حياة قط أعور في شوارع البصرة، عانى من كل شيء من الضرب، من الإذلال، من الجوع، من الركل، وكانت وسيلته للنجاة هي: الشعر.

الشيء اللامع الوحيد الذي حدث في حياته في البصرة حين عثر على عمل في دكان التوابل، عند الآثوري الذي اسمه سركون. وإن كان يعمل، إلا أنه بقي زاهداً. لم يتصنع الزهد، لأن الزهد المتصنع مثل الخلاعة المتصنعة بالنسبة له، كان زهده طبيعياً مثل كل شيء فيه.

*

كانت مناسبة نسبة لي في التحدث معه عن الأدب الهندي. وكان اهتمامه بالقارة واضحاً، ومعرفته عميقة بالكثير من الأفكار، وهذه المعرفة كانت كافية لإدامة حديث بيننا ساعات عن الروايات والشعر والفلسفة وأفلام البوليوود التي أحبها، وهو يبيع العطور الهندية والبخور والعنبر ويتحدث مع الزبائن بخليط من إنكليزية وعربية وآثورية تعلمهما هنا، غير أنه بعد سنوات أصبح يتحدث العامية البصرية بلكنة هندية، أما أنا فقد تعلمت منه الكثير، فقد تعلمت منه بعض الكلمات باللغة الأوردية، وسمعت منه عن شعراء أورديين من جميع القرون، وتعلمت منه بعض الأغاني، إذ كان يغني الأغاني الهندية الشائعة ولا سيما في أفلام شاشي كابور بصوت عذب في دكان التوابل.

كنت أقف في الدكان معه وعلى صوته الشجي والدافئ أستعيد في ذهني كل هذه الجغرافية الخرافية التي خلطت في مخيلتنا نحن البغداديين بين العفاريت والمردة، بين الحوريات والجنيات، بين الأفاعي والكوبرا، بين طاقية الإخفاء وبخور السحرة، بين الروح التاريخية والدينية، بين العلوم الشعبية والفنطازية. ولا أعرف لماذا كلما تكلمت معه تأتي إلى ذهني واضحة مجسمة رحلات التجار البصريين التي دوّنها الحسن السيرافي، رحلات التاجر سليمان وعثوره على العنبر في جزيرة السرنديب، والكبنج في بحر هركند، ورحلة التاجر ابن وهب ورؤيته لأكلة لحوم البشر في

الهند الشرقي، حيث صورهم أنصاف عراة بسحناتهم السود المصفرة، يأكلون الرز والموز.

ساذا أحكي لك يا سيدي عن تلك الأيام، لقد كان الحديث مع راجا تشاندران لا يقدم لي تاريخنا القديم فقط، إنما ينقلني إلى الصورة التي طبعها الاحتلال البريطاني في العام 1917 في ذاكرة العراقيين، إنه دخول سرايا الصاحب الراجلة مع خيالة الجيش الإنكليزي في "الكرنتينة" و"الهنديدي"، صورة العمائم البيض الكبيرة واللحى الصاروخية الغزيرة الشعر. أما في القرن العشرين فقد ارتسمت صورة الهندي في ذاكرة البغداديين في استعراض الجيش البريطاني كل أسبوع في شارع الرشيد: الضباط البريطانيون على الخيول، أما الهنود فيسيرون مع البغال الصغيرة التي تسحب الرشاشات الفيكرز واللوبس، أو يركضون وراء لاعب الصولجان البريطاني الذي يقدم استعراضه مع الموسيقى بينما هم يسيرون في الصف الأول وخلفهم السيخ والكركة والبانيان والأفارقة والمسلمون.

*

هكذا كانا العامين أو الثلاثة أعوام التي كنت ألتقي بها براجا تشاندران على الأقل يوماً واحداً في كل إجازة. ولكن، وهذا ما يجب أن يحدث على الدوام في الأفلام الهندية، جاء حدث قلب كل شيء رأساً على عقب.

جاء انتقالي قبل نهاية الحرب العراقية الإيرانية بعام واحد من جبهة البصرة في الجنوب إلى جبهة الشمال. وقد تأثر راجا تشاندران كثيراً بذلك. وودعني بدموع غزيرة، بعناق، بعواطف هندية صميمية مثل تلك التي نراها على الدوام في السينما الهندية. ولكن أخباره انقطعت عني في ذلك الوقت تماماً، كما انقطعت أخباري عنه. لم أسمع منه إلا بعد أن انتهت

الحرب العراقية الإيرانية بشهر واحد تقريباً أي في العام 1988، وصلتني منه رسالة باكية ومتفجعة، يشكو بها أحواله التي تسوء، ومن عوزه وفقره، كما أن صاحب دكان العطارة قد طرده من عمله.

في تلك الفترة كنت تسرحت من الجيش وكانت لدي بعض العلاقات التي يمكنني أن أستغلها. فأجريت اتصالات بأصدقاء كثيرين. حتى حصلت له على وظيفة في شركة بريطانية في السماوة كانت توافق على تشغيل الهنود في العراق. وذهبت أنا وصديق لي- كان مولعاً بكاتبة هندية كلاسيكية تكتب روايات ميلودرامية- إلى البصرة، وحملنا أغراضه وصراره وأدواته وكتبه الأوردية والإنكليزية ووضعناها في سيارة تاكسي وانطلقنا نحو مدينة السماوة.

وفي الطريق أوقفتنا دورية الشرطة وطلبت جوازه أو كارت إقامته، فلم تكن الحكومة أوانذاك تسمح لهم بالانتقال أو الحركة. وبعد محاولات وحيل كثيرة استطعنا أن ننقذه ونوصله إلى مكان الشركة.

وقد حصل هناك على حجرة ومنضدة وكرسي وسرير، وقال إنه في هذه الحالة سيعود إلى كتابة الشعر، وبالفعل فقد أرسل لي رسائل عديدة متضمنة آخر قصائده بالأوردية وترجمتها إلى الإنكليزية. وقد قمت أنا بترجمتها من الإنكليزية إلى العربية ونشرتها في الصحف في بغداد. وكنت أكتب له عن ذلك على الدوام، وأفصل له أخبار نشر قصائده المترجمة وأخترع له أسطورة تأثيره على الشعر العراقي المعاصر لعل هذا الشيء يفرحه ويريحه. وكان هو يطلب مني نسخاً من الصحف التي أنشر بها قصائده، وعلى الرغم من أنه لا يقرأ بالعربية، غير أنه كان يحرص كل الحرص على الحصول على نسخ من تلك الصحف التي تنشر له، وعندما لا أرسل له الصحيفة فقد كان يكتب رسائل طويلة يشرح لي كيف أنه اكتشف كذبتي وحيلتي وبأني لم أنشر

...ته! فقد كان يتمتع بروح متشككة ومرتابة على الدوام.

*

الحدث الكبير الآخر الذي غير مصيره، بل غير مصائرنا جميعاً ذلك الوقت هو العام 1990، حين احتل العراق الكويت، وعدت مرة أخرى جندياً إلى الحرب، "عاصفة الصحراء"، وفي هذه الحرب المدمرة كنت جرحت جرحاً بالغاً، ودخلت المستشفى لأكثر من شهرين، وبعد شفائي وخروجي من المستشفى، عملت صحفياً. وحاولت الاتصال بصديقي راجا تشاندران وأرسلت له بعض الرسائل، إلا أنها كانت تعود بسبب تغير في العنوان، وفي يوم تعرفت على شابة تعمل في مجلة نسائية في بغداد، ويقطن أهلها في السماوة على مقربة من الشركة البريطانية التي كان تشاندران يعمل بها، فطلبت منها أن تجري تحرياتها واتصالاتها لمعرفة أخبار صديقي الشاعر الهندي، وبعد أسبوعين أخبرتني بأنه انتقل نهائياً إلى بريطانيا، وهو الآن في لندن، ذلك أن راجا تشاندران في العام 1990 قد احتجز مع البريطانيين والأجانب العاملين من قبل الحكومة العراقية وعاملتهم كرهائن، ولكن الحظ ضرب معه ضربته، ذلك أن الحكومة العراقية قد أطلقت سراح الرهائن، وقامت الشركة البريطانية التي كان يعمل فيها بتسفيره مع الرعايا البريطانيين إلى بريطانيا...لكن كيف؟ لم تستطع معرفة التفاصيل، وبقي الأمر برمته مجهولاً نسبة لي حتى رأيته مرة أخرى في البصرة بعد الاحتلال مباشرة.

*

بعد الاحتلال الأخير للعراق من قبل الحلفاء 2003 كانت القوات البريطانية قد تركزت في البصرة، وبالصدفة كانت إحدى الصحف التي كنت

أعمل لها مراسلاً طلبت مني أن أكتب تقريراً عن أحوال دور السينما في البصرة، وأن أستطلع آراء الناس حول الأفلام الهندية ليتمكن أحد التجار من استيرادها، ولمعرفة موقف الحركات الدينية منها. فكانت فرصة كبيرة لي أن أزور هذه المدينة أول مرة منذ أن غادرتها جندياً أثناء الحرب العراقية الإيرانية، ومنذ ذهابي هناك لنقل صديقي الهندي إلى الشركة البريطانية في السماوة. غير أني لم أستطع التجول في المدينة أو زيارة أسواقها سوق سوق الهنود كما كنت أفعل في الأيام الأولى، وفي يوم قررت التجول في مدينة البصرة، وقبل عودتي إلى الفندق وفي سوق الهنود تحديداً التقيت راجا تشاندران مرة ثانية.

لم أعرفه أول الأمر فقد كان يرتدي الملابس الأوربية ويرافق الجنود البريطانيين كمترجم لهم. كما أنه قد خلع عمامته، وحلق لحيته، وبدا متأورباً بصورة كاملة. كان هو الذي تعرف علي، فصاح بي. توقفت مندهشاً ذلك أنه كان مع مجموعة من الجنود البريطانيين يسيرون في دورية في شارع من شوارع البصرة.

من هذا المرافق أو المترجم الذي بدا من سحنته هندياً يصيح عليّ وباسمي؟

تحرك باتجاهي وكان مبتهجاً برؤيتي. قلت له "من أنت؟" إلا أني في تلك اللحظة عرفت أن هذا هو راجا تشاندران. وقبل أن ينطق اسمه، وعلى دهشة الجنود البريطانيين الذين كانوا هناك صرخت به:

"أوه راجا...يا صديقي..." وتعانقنا. لقد فرحت برؤيته فعلاً، لا حد لسعادتي لرؤيته بعد كل هذه السنوات التي مرت وكل تلك الأحداث التي حدثت.

قلت في نفسي يا للقدر الذي جمعني به مرة أخرى. وأنت تعرف للقدر الخاصة، رائحة اللحم المعفن! وأحياناً له رائحة زهرة برية، والقدر مع راجا تشاندران له على الدوام، رائحة زكية، وهذا حق وحقيقة أيضاً...

من اللحظة الأولى التي رأيته فيها في دكان سركون الآثوري عرفت بأن هذا الهندي رجل شريف. عمامته التي سقط عليها شعاع الشمس، لحيته التي منحته صورة فيلسوف كل هذا أوحى لي بذلك. وشعرت بأن الحظ الفني بلقائه، بلقاء هندي له حكاية ممتعة ومثيرة. ومن البداية قلت إن الأفلام الهندية التي يراها بعض الناس غير واقعية، هي واقعية. لأن تغير الأقدار السريع، والتحولات المدهشة ممكن أن تحدث مع الهنود فقط، لكن لا تحدث مع الشعوب الأخرى. وهذا هو سر اهتمامي بالأفلام الهندية.

إن القدر الذي لعب مع راجا تشاندران اللعبة المعروفة من التعاسة في الهبوط إلى أسوأ مكان إلى الصعود الشاهق هو قدر الآلهة مع الهنود فقط.

*

ضحكنا أنا وهو كثيراً، ومشينا معاً إلى مطعم في المدينة، وحدثني كيف وصل إلى بريطانيا، حدثني كيف احتُجز مع البريطانيين، وأثناء إطلاق سراحهم وتسفيرهم بعد ستة أشهر من الاحتجاز كرهائن تم تسفيره معهم إلى بريطانيا. قلت له:

"لقد احتجزوك مرة أخرى."

قال ضاحكاً:

"وجعلوني رهينة أيضاً..."

"يا للعراق وراجا تشاندران فهو إما محتجز فيه أو رهينة!"

قال ضاحكاً:

"قدر الهندي يختلف عن قدر العراقي...الهندي يهبط قدره إلى الأسفل، ثم يصعد مرة واحدة إلى الأعلى مثل الأفلام الهندية، أما العراقي فقدره يهبط به إلى الأسفل على الدوام حتى يغيبه في القبر..."

كان لقاؤنا رائعاً، تحدثنا طويلاً أمام الدكان الذي كان يعمل فيه. ثم انتقلنا هو وأنا بسيارة جيب عسكرية كانت في خدمته. توقفنا طويلاً أمام المنطقة التي احتجزت فيها مراكبهم أثناء الحرب العراقية الإيرانية.

*

التقينا كثيراً خلال تلك الأيام، في الشارع مرتين مصادفة، التقينا في مطاعم متعددة في المدينة. عرفني على زوجته البريطانية أديث التي جاءت معه وسكنت في فندق شيراتون البصرة في الأيام الأولى. تعشينا -أديث، هو، وأنا- مرة في مطعم الفندق، ومرة في أحد المطاعم الواقعة وسط المدينة. قال لي:

"يا رجل دعك من هذا.أنت كيف سارت الحياة معك؟"

"سيئة دائماً، وما زلت أتمنى أن أكون مثلك..."

"كيف تود على الدوام أن تكون مثلي؟"

"أن تكون لي حياة مثل حياتك، أن يلعب فيها القدر كما يلعب في الأفلام الهندية."

ضحك وقال لي "وكيف يلعب القدر في حياتك؟".

قلت له: "يلعب دائماً في نفس وتيرة النصف الأول من الفيلم الهندي، لا يصعد أبداً، في حين أنت حياتك مثلاً فيلم هندي؛ فيه الشق الأول التعيس

الشق الثاني السعيد...أما أنا فليس لي سوى الشق الأول، يبدو أن المخرج الإلهي العراقي يفقد الحماسة في إكمال الفيلم، فيتوقف القدر عنده دائماً في المكان السيء."

ضحك وقال:

"ولكني مستغرب، أين ترى سعادتي؟"

"لا أعرف بالضبط، ولكني مثلاً كنت أريد في البداية أن أكون هندياً مثلك، كنت أراك سعيداً بطابعك القديم والتراثي، واليوم أريد أن أكون بريطانياً مثلك، أو كما تقول هندي جديد، وسعيد، لا أظن القارة الهندية حزينة لأنها خسرت واحداً، فهي تنتج على الدوام البشر والبقر."

"ولا أظن أن بريطانيا فرحت لأنها ربحت واحداً! ولكن لم تقل أين مكمن سعادتي الآن؟"

"بالأشياء البسيطة...أنت تغيرت سريعاً، أنت الآن تلبس الملابس الإفرنجية، تسمع الموسيقى الكلاسيكية، هندي جديد، متعلم، مندمج، متزوج من أوربية شقراء، وتأكل اللحم على المائدة وجبتين على الأقل في اليوم،أما أنا فيأكلني الجميع كل صباح ومساء."

*

هذا كل ما دار بيننا أقسم لك على ذلك، لم نتكلم عن أي شيء آخر، لم يسألني عن السياسة، ولا عن أحوال الناس، ولا عن الاحتلال ولا عن القوى الدينية ولا السياسية، كما أنه مترجم، يحصر واجبه بهذا الأمر، ينقل ما يقوله الضابط البريطاني للناس، وينقل ما يقوله المتكلم للبريطاني.

غير أن المسلحين ألقوا القبض علي حينما كنت خارجاً في يوم من الأيام من الفندق الذي كنت أسكن فيه، بعد حوالي أسبوعين من لقائي براجا

تشاندران. كان الوقت حينها بعد الظهيرة، وكنت أنوي أن أجمع بعض آراء الناس في الأفلام الهندية، وماذا لو تم إعادة تأهيل بعض دور السينما في المناطق الشعبية.

كنت واقفاً بانتظار تاكسي لتقلني إلى دار سينما في وسط المدينة. فجأة توقفت سيارتهم أمامي وهبط منها ثلاثة ملتحين، وبأيديهم أسلحتهم. نزل الأول وكان بكرش كبير وصدر عال. لا أعرف ماذا يشرب أو ماذا يأكل ليملك كل قسوة القلب هذه. أما الثاني فقد كان له وجه صلب لا يضحك أبداً، كأنه مصنوع من الكونكريت. أما الثالث فكان ضعيفاً وأمرد مثل امرأة فاستبشرت أن يكون من بينهم شخص أشبه بالبشر...إلا أني سرعان ما اكتشفت خطئي فقد كان هذا الأخير هو الأكثر وحشية منهم. قال بصوته النسائي.

"قف وإلا سأفجر خصيتيك بالرصاص..." فتح مغلاق سلاحه ورفع بندقيته ذات الفوهة القصيرة وأراد أن يطلق الرصاص على صدري.

قال له السمين "توقف عن إطلاق النار...نريد أن نحاكمه." فأنزل بندقيته.

اقتادوني إلى مكان قريب من الساحل، في كابينة يستخدمونها للمحاكمات، عليها شعارات دينية كثيرة، وجلسوا قبالتي.

"أنت جاسوس، تقدم المعلومات إلى البريطانيين عنا بواسطة هذا الهندي الكافر." قال السمين الذي كانت تنبعث منه رائحة غريبة.

قلت لهم "أبداً لم نتكلم يوماً عن شيء كهذا، لا في السياسة ولا في الدين."

"أين عرفته؟" قال صاحب الوجه الكونكريتي وكأن صوته يأتي من برميل زبالة.

"في سوق الهنود؟"

"في سوق الهنود؟" صرخ الأمرد الذي يرتدي جلباباً مخططاً:"تكلم الحقيقة، إن كذبت سوف أسحق خصيتيك بهذا السلاح."

"أنت تضحك علينا ما معنى سوق الهنود؟" قال صاحب الكرش مستغرباً من وجود سوق في المدينة بهذا الاسم، فعرفت أنهم ليسوا من هذه المدينة.

"يسمى هكذا، لأن الكثير من الذين يعملون فيه كبزازين، وقصابين، وحلاقين، جاءوا فيما مضى من الهند! هل أذيع سراً إن قلت لك أني تعرفت عليه قبل عشرين عاماً! لا أعرف في أي عام بالضبط، ولكن معرفتي به تمتد إلى بدايات الحرب العراقية الإيرانية، في الثمانينات. وقتها كنت جندياً في جبهة البصرة. والإجازات الشهرية ذلك الوقت على ما أتذكر قليلة أو شحيحة، ومع أن أيامها لا تتجاوز الخمسة أيام، إلا أني أفضل قضاء يوم واحد على الأقل في التجول في المدينة قبل الذهاب إلى محطة القطار للذهاب إلى بغداد حيث أسكن، وهناك تعرفت على هذا المسكين، وكان تعيساً جداً، ولكن بعدها صعد القدر معه، هندي، أنتم تعرفون أن الهنود لهم رب في النهاية يقف إلى جانبهم ويطلقهم إلى المجد."

"ربهم بقرة." قال صاحب الوجه الكونكريتي باحتقار شديد للبقر.

"نعم بقرة يمكنها التلاعب بالأقدار كما الأفلام الهندية، المشكلة أن ربنا ليس بقرة ولكنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء، إنه لا يستطيع تغيير أقدارنا التعيسة."

"أنت مرتد. لقد أصبحت تعبد البقرة أليس كذلك؟ جاء هذا الكافر ليبشر بديانته هنا وأنت تتبعه الآن، عليك أن تعترف."

"أنا أتكلم عن القدر لا عن البقر."

إلا أن جوابي لم يعجبهم فقام الأمرد بضربي بقوة في البداية على ردفي، ثم على خصيتي ببندقيته، ثم أخذ يضربني على وجهي...فسقطت أرضاً. أطلق رصاصة سمعتها ولا أعرف فيما إذا أصابتني أم لا.

حسن ظنوني ميتاً، أنا ظنيت نفسي كذلك... بعد قليل قرروا دفني في التراب، سمعت صاحب الوجه الكونكريتي يقول لصاحب الكرش ادفنه هكذا، احفر حفرة وأهل عليه التراب، إلا أنه اعترض، قال لهم نحن مسلمون علينا أن نضعه بالتابوت وندفنه، لأننا لو دفناه هكذا فإن الله سوف يحاسبنا! فصدق المؤمنان الآخران بما قاله. قال صاحب الوجه الكونكريتي إنه ذاهب ليجلب تابوتاً...بعد قليل عاد، قال لهم: "لم أجد غير هذا التابوت المخزق."فوضعوني في التابوت، وطلبوا من السمين صاحب الكرش أن يحفر حفرة، ذلك لأنهم قسموا العمل فيما بينهم:

الأمرد قام بقتلي وهو يبتسم، وصاحب الوجه الكونكريتي جلب التابوت، وكان الدور على السمين كي يحفر حفرة.

من حسن حظي أنه تعب جداً وأخذ يلهث، فحفر حفرة صغيرة ليست عميقة، وأهال التراب علي، ورحل، ثم سمعت سيارتهم قد شخطت في الأرض، وسارت بسرعة جنونية. فأفقت، دفعت غطاء التابوت وأزحت التراب بيدي، وقمت من قبري أبحث عن خمرة، فصادفتك.

*

سيدي أنا عانيتُ العديد من الظروف ولكنني لست أحد أولئك التافهين الذين تلتقيهم في الصحيفة أو في الشارع ممن يعيشون ويفكرون بجيوبهم وببطونهم. إنما أعيشُ مثل صقر، صحيح أني أكتب عن البوليوود وأبطال

السينما الهندية، لكن الخيال الذي يقدمه لي الهندي كفيل بأن يصنع أمة أفضل بكثير من الأمة التي صنعناها من زبالة واقعية. أنا شخص حالم، أتكلم مع نفسي كثيراً، أحياناً أسمعُ صوتي وأنا أتكلَّم، أتكلَّم معك بعض الأحيان وأسمع صدى صوتي، هذا الشخص الآخر الذي هو أنا، هو الذي يملأ الفضاء من حول رأسي...هل تفهمني... أعطيك مثلاً عن هذا الأمر:

أنا أشعر مثلاً أنهم جاءوا الآن! أستطيع أن أتعرف عليهم من بعيد، قبل أن يراهم أحد أو يشاهدهم، أعرف أنهم قادمون لإعادتي إلى القبر هل تصدق ذلك، حسن سيدي، أقول لك كلمة أخيرة، إن قصتي قد انتهت الآن، فالتفت جهة الشمال ستراهم أمامك...انظر...ها هم الثلاثة الذين حدثتكم عنهم.

*

التفت شمالاً...لبضعة ثوان فقط، فجأة ظهر أمامنا ثلاثة مسلحين ملتحين، وقد عرفتهم من خلال الوصف الذي قدمه لي:

الأول بكرش كبير وصدر عال، والآخر له وجه صلد وغاضب، أما الآخر فلم يكن بلحية، كانت له تقاطيع أنثوية، والثلاثة كانوا يحملون أسلحة ويتوجهون نحونا.

لقد ارتعبت من رؤيتهم، شعرت بأني سأقتل لا محالة، كما أننا شربنا خمرة، لو اقتربوا منا سيرون كل شيء، أو على الأقل سيشمون رائحة البيرة القوية من أفواهنا، فعرفت لحظتها أننا في ورطة، ورطة حقيقية أمام هؤلاء المتوحشين الذي من دون شك سيبطشون بنا.

توقفوا ليس قريباً منا إنما على مسافة حوالي أربعة أمتار، ولهذا السبب لم يروا قناني البيرة التي أفرغناها ورميناها على مسافة مترين منا. على

العموم كانوا منشغلين بنا ولم يكونوا منشغلين بالأرض من حولنا.

صرخ الأمرد بصوت ناعم ولكنه حاد وقاس:

"ماذا تفعل هنا؟ أنا قتلتك...أنت ميت كيف أصبحت هنا؟"

قال لهم هذا الرجل مرتعداً:

"نعم والله أنت صادق أنا ميت ومدفون في المقبرة، وخرجت لمدة خمس دقائق أدور واحد عنده جكاير... أخذ جكارة ثم أعود إلى القبر."

قال له السمين صاحب الكرش.

"أيها الكافر لا يحق لك أن تغادر القبر، سيطلبك الرب ومن ثم لا يجدك... تعال هنا وبسرعة."

فهرول نحوهم وما أن وصل أمامهم، حتى ضربه الأمرد في بطنه بعقب السلاح، وطلب منه أن يركع على الأرض. فأطاعه، بينما جلب الآخران التابوت وطلبا منه أن يتمدد فيه، فتمدد فيه دون أن يقول أي شيء، فأغلقاه عليه وحملاه وسارا بينما تبعهم الأمرد دون أن يكلمني أحد منهم كلمة واحدة.

*

كيف لم يرني منهم أحد، لماذا لم يكلمني منهم أحد. ما هذه الحكاية الغريبة؟

إلى الآن لم أفهم ما حدث، كما أن هذا الصحفي المتخصص بالأفلام الهندية، الذي قال لي إنها حكاية لا تصلح أن تكون تقريراً ولا خبراً كان محقاً في ذلك. في الواقع هي لا تصلح لأي شيء، كما أني لا أستطيع أن أرويها لأي شخص لفرط غرابتها، الشيء الوحيد الحكيم الذي فيها والذي يبدو مبرراً لتداولها، هو حقيقة:

أن البقر يصنع أقداراً أفضل بكثير من الأقدار التي تصنعها لنا آلهتنا المحترمة.

بروكسل 2016

وحدهم القتلى شهدوا نهاية الحرب

في شرق مدينة البصرة، على اللسان الترابي الذي يمتد إلى الخليج من الشرق تجمعنا هناك في مواضع شقية عميقة. آلاف من الجنود تزاحمنا سنا الكاكية المنقوعة بالمطر، وخوذنا الحديدية المشبكة، وأسلحتنا، انا مواضع كثيرة، وضعت في أعلاها أكياس صغيرة من الرمل، أما جهاتها وحة فقد كانت غاطسة بالمياه والوحول بصورة شديدة...

كان الطين من العمق بحيث أننا نغوص فيه إلى العرقوب، فلم يتوقف لر منذ يومين كاملين، أبداً، السماء تمطر بشكل متواصل، وبوتيرة احدة، حتى غطى الفضاء كابوس من الماء. قبل أن نلتحق بهذه المعركة، نذ عشرة أيام تقريباً، كان جنود وحدتنا يصدون الهجوم من جهة الغرب، يث أعداد ضخمة من الآليات العسكرية البريطانية والأميركية كانت توغل عند اللسان الترابي وتتجمع في مفارز مسلحة عديدة...

في الواقع، منذ سبعة أيام وأنا في جبهة الحرب، غير أني لم أشترك في معركة حقيقية ولا مرة أبداً، كنت قبلها في المواضع الخلفية، عند خطوط التموين، أرقب بصمت الجنود الجرحى على النقالات، والضباط القتلى وهم يوضعون في التوابيت، كنت أنظر نحوهم من بعيد ولم أقترب منهم أبداً، وعلى المدى الممتد كنت أرقب مواضع التموين وهي تقبع في توازن صارم، ما خلا قنابل المدفعية التي تهبط على الكتل الإسمنتية الثقيلة فوق خنادق المعسكرات.

كانت المدينة حزينة وبعيدة، كأنها منفية في أقصى تخومها، وهي خالية تماماً، خالية أبداً.ما خلا الشاحنات التي تنغر في الطين وهي تخترق

شوارعها، ومن المكان الذي كنت فيه كان يمكنني أن ألمح التراد
القاسي لأجساد الجرحى على النقالات، والممرات الباردة حيث الممرضا
بمريولاتهن البيض يسرن في الهيكل المحكم للمستشفى العسكري، أو
في مخيم الطوارئ، كنت أرقب- حزيناً - ذلك التشابك المأتمي للأشجار
العملاقة، وهي ترتفع قاتمة يحيطها ضباب كثيف، وبين وقت وآخر تمر
أرتال من الجنود بستراتهم المتسخة أمام الحواجز المشبكة، أرتال من
الجنود الذين سيقتلون بعد ساعات... صورة أخرى تكمل الكابوس...

*

كان الضابط الشاب خشن المظهر، بشوارب سوداء فاحمة، وبنظرة صارمة، منشغلاً بالتحديق في خريطة جغرافية موضوعة على الطاولة، في تعبيره العبوس والصارم قدرة هائلة على التجاهل والاستنكار، لا أدري لماذا نظر لمظهري نظرة احتقار متعمد، في مظهره الريفي هذه العجرفة المتكلفة والحقد غير المبررين والتي عرفت بأني سأواجههما كثيراً هنا في جبهات الحرب.

أمرني بالالتحاق بمعسكر التعويض القريب من المستشفى.

حملت يطغي على ظهري ووضعت سلاحي على كتفي، وسرت نحو الشاحنة المتوقفة على مقربة من المقر، رميت نفسي على حديدها البارد، وزحفت نحو الزاوية اليمنى وجلست مقرفصاً، دافعاً ركبتي إلى أعلى صدري. كنا أكثر من عشرين جندياً منحشرين على الحديد البارد، جالسين، ننظر بصمت ذاهل إلى بعضنا.

سارت الشاحنة على الطريق الطويل الذي يصل المعسكرات الخلفية بخنادق القتال، كانت تمر بمعسكرات عديدة، معسكرات مهيبة تحمل على

راياتها الكثيرة أعلام الفيالق ورايات الأفواج، صور القصف الشديد تتلاحق في الطريق، سيارات إسعاف مملوءة بالجرحى تمر بسرعة وهي تطلق صفاراتها، شاحنات التموين تمر متتابعة واحدة بعد أخرى، وعلى جانبي الطريق العسكري محطات كئيبة مزدحمة بالجنود على العكازات، ومدن [illegible] حطمتها المدفعية تماماً، وخنادق موحلة، متجمدة من البرد.

لا أحد يتكلم منا في هذه الفسحة المتبقية من الحياة أبداً، كان الصمت وحده كافياً ليدلل على هذا التغلغل البطيء للموت فينا، كان وحده كافياً الذي يطبع المدن المهجورة التي نمر بها والمنازل المحروقة بطابع موتنا المؤجل، وما يخطر في البال بعد هذا التخريب والدمار، هو الصمت الجذاب والخجول، لهؤلاء الجنود الذاهبين في هذه الظهيرة الممطرة الكئيبة، إلى مصير مجهول.

*

-بعد المعارك الساخنة الأخيرة قتل أكثر جنود الألوية والأفواج المتجمعة في المواضع المتقدمة عند الجبهة، فأخذوا يعوضوننا بهم. ولهذا كانوا يسمون معسكرنا الخلفي مركز تعويض...

"مركز تعويض" هكذا يلفظها الجنود نكرة. معسكر مسيج بأسلاك شائكة، يمتد على مساحة كبيرة عند الخطوط الخلفية ومراكز التموين، غير أن الوصول إليه هو بداية النهاية المحتمة. فالتعويض مستمر لأن القتل كان مستمراً، وكان الموت وحده الذي يزحف ويلتهم دون توقف هؤلاء الأحياء، أنت تعوض المقتول، وتشعر في الوقت ذاته أنك مقتول مؤجل، وهناك من ينتظر تعويضك... ولا تفكر إلا بأمل ما في الحياة؛ أمل لا يقهر، وفي لحظات العذاب تفكر بالاستعداد لتقبل فكرة الموت، مثلما يتحمل المرضى فكرة

السرطان دون أن يشتركوا في دفعه قط، ولا شك أن أكثر الأفكار ثباتا في الحرب هو أن الموت والحياة أمران سيان. ففي لحظات الحرب الأكثر قسوة تتبادل هاتان الفكرتان المواضع حتى يلتبس عليك المفهومان تماماً.

ماذا أفعل هنا بين الجثث والخرق والقشور؟

إنها رغبة البقاء، والشعور بالحياة كلحظة ممتدة، والوقوف أمام عذاب الحرب، وبشاعة القتل، وابتسامة الجنود المؤقتة.

*

بعد مسيرة يومين وصلت المعسكر. كانت قمصلتي الكاكية قد تنقعت تماماً، المطر يسيل على وجهي ويهبط من ذقني بصورة متواصلة، أما الوحل فقد تعلق بحذائي حتى منعني من السير بصورة مريحة، كنت نحيفاً جداً وشاحباً. لم أشترك بمعركة من قبل، ولا أعرف ما هي المعركة. كل ما أعرفه عن الحرب كنت قرأته في روايات همنغواي وأريش ماريا ريمارك وتولستوي.

لشدة تعلقي بالقراءة أخاطت لي أمي جيباً داخلياً في القمصلة العسكرية ليحوي على الأقل كتاباً أو كتابين صغيرين أحملهما معي أينما ذهبت، وفي ساعات الاستراحة، أجلس منعزلاً عن الجنود وأغرق في كتابي، أغرق في السطور كأني في زمان ومكان آخرين، كأني أعيش في عالم آخر غير العالم الذي أجبرت على الوجود فيه، ومختلف عنه تماماً.

القراءة...كانت امتيازاً فادحاً حقاً، كانت هروباً من عالم إلى عالم آخر. وهكذا في كل ساعة تقريباً وحتى تحت القصف الشديد والهلع المروع لهجومات لا حدود لها، كنت أذهب بعيداً، أذهب بسرعة مع الأحداث من غير توقف، متسلحاً بقوة الشغف التي تتملكني، كي لا أعود إلى الزمان والمكان اللذين أعيش فيهما.

كنت أتساءل على الدوام: هل كان بطل بروست الشاب، أكثر حكمة، عندما دخل إلى حجرته منعزلاً، وغرق في كتبه كي يتفادى رؤية جدته وهي تتألم؟

بعيداً عن تعفن جثث القتلى القادمة مع الهواء الهاب من ساحة المعركة، أو بعيداً عن البارود الذي كان ينفذ إلى أعماقي حتى يجعلني اتقيأ، بل يفتك أحياناً بأحشائي، حتى يصبح التقيؤ أمراً تافهاً بالقياس لما كنت أشعر به، كنت أذهب إلى العزلة السرية للقراءة، أذهب هناك إلى الألفة المطمئنة، كي أشم من سطور كتابي عبير سوسنة بعيدة، أو رائحة خشب مكتبتي الممسوح بالاسبرتو، أو رائحة الحجر في منزل ما وقد نقعه الماء.

كانت القراءة بديلاً حقيقياً عن الضراعة الذهنية التي تعصف بي، كانت نوعاً من الافتتان بالانسحاب من حياة تعيسة مقدرة، وتلذذاً غير محدود بتشوش الخيال، كنت موجوداً بين القتلى، أو الموتى المؤجلين، وحتى أنا كنت مقتولاً لا محالة، ولكني أشعر بنفسي جالساً مثل مشمشة برية نبتت خارج أحجار السور.

*

ترجلت من السيارة العسكرية وأديت التحية إلى الضابط. فأمرني بالدخول إلى الموضع شبه المعتم. تحت غشاوة أصوات الانفجارات والصور المتلاحقة كان المشهد يتلاشى شيئاً فشيئاً ويتشوه، لم أعد أر شيئاً، ما خلا ضرباً من العتمة الباهتة، وليلاً مبللاً من المطر راح يحجب كل شيء، ما كان المطر ذلك اليوم الشديد العصف يكف عن الانهمار، صار كل شيء ماء، أكياس الرمل على باب الموضع، والجندي الحامل سلاحه، والكلمات التي

تبادلناها، وهي تخفي في نهاياتها بلل الشفاه المقدر من ماء يسيل من الجبين إلى الذقن.

دخلت بخطى متباطئة، سلاحي بيدي، خوذتي الحديدية انحرفت قليلاً دون أن أعدلها، ذلك أن أمتعتي على كتفي كانت تثقلني، وحذائي الضخم المتعثر بالماء والوحول كان يثقلني، وكل دقيقة كنت أتحسس كتبي الموضوعة في الجيوب الداخلية التي أخاطتها لي أمي، مضطرباً من خشيتي عليها من البلل، ومدركاً مظهري المضحك وخجلاً منه أيضاً.

كنت ذلك الوقت أنشغل كثيراً بالمظاهر والأشكال الخارجية، وأعير اهتماماً شديداً لهذه الأشياء السطحية، بسبب التربية وبسبب العمر، غير أن ما خفف هذا الأسى المفروض علي هي الابتسامات التي قابلني بها الجنود الأكبر سناً وهم يحرسون عند واجهة الموضع، والذين حيوني تحية مودة. كانت ملابسهم الموحلة تقطر ماء... خوذهم الكاكية تقطر... ووجوههم الشابة منقوعة تماماً، وإلى اليوم أتساءل أفي هذه الساعة من القتال، كان لهم الوقت لتحيتي، ولتقديم ابتسامة لن أنسى صداها أبداً؟

تلفت في الموضع المختنق الصغير، كان أحدهم يحمل كتاباً بيده مقترباً من فانوس صغير كي يقرأ على ضوئه الضعيف، وهذا ما أفرحني جداً.

اقترب العريف من الفانوس رفع زجاجاته من المقبض وأشعل سيجارته وأخذ ينفث الدخان في الهواء.

شخص آخر كان يجلس بعيداً تقريباً عند الزاوية اليمنى، يجلس على ركبتيه وهو يزيّت بندقية في يده، في هذا الموضع المحتشد بالعتاد والأسلحة والصحف والكتب، كانت مجموعة من الجنود أخرى تنام متكئة

ا. جدار الموضع ومغطاة بالبطانيات.

نظرت إليهم: أرجلهم ملمومة إلى بطونهم، ورؤوسهم وجزء من الكتف والظهر متكئة على الجدار. أما أنا فقد كنت متعباً، وخائفاً، ومشوشاً كثيراً.

سألت:

هل في هذا اليوم ساعة الهجوم؟

قالوا: لا...ربما غداً.

نظرت إلى العريف بابتسامة خجلة، وطلبت منه أن يسمح لي بالنوم مع زملائه الجنود النائمين على الجدار، فأنا متعب ومبلل وأريد أن أغفو قليلاً... اضطرب قليلاً حين أشرت لهم بيدي.

نظر نحوي بصورة ثابتة، هز لي رأسه موافقاً.

سمح لي دون أن يبتسم.وذهبت سريعاً لأخلع أمتعتي عن كتفي دون أن أفهم شيئاً من العيون... عيون الجنود في الموضع، والتي أخذت تتلاقى مسرعة فيما بينها.

كنت وضعت أمتعتي على مقربة مني، واتجهت إلى المجموعة النائمة. اقتربت منهم، نظرت إليهم بسرعة ثم قلدتهم في نومتهم.

انطرحت بملابسي المبللة على الأرض، بحذائي أيضاً، سحبت قليلاً من البطانية المرمية على الجندي النائم قريباً مني، ووضعت رأسي وجزءاً من كتفي على الجدار، ووضعت ركبتي قريباً من بطني مثلما لو كنت مقرفصاً.

لم تكن مريحة هذه النومة، ولكن لم يكن ممكناً غيرها، علي أن أنام مثلهم كي أستطيع سحب بعض من البطانيات على جسدي. كان وجه الجندي النائم قريباً مني إلى الجهة الأخرى، غير أن قدمه كانت قريبة من

قدمي، خارجة من البطانية بحذاء أسود وجوارب خضراء فاقعة. سحبت بعض البطانية منه ببطء شديد كي لا أوقظه. ما بقي في ذهني هو هذا اللون الفاقع للجوارب الخضراء التي كان يرتديها وأنا أشاركه بطانيته.

كنت يافعاً جداً، أتعلم الحياة بدقة شديدة، وربما تشكل في نفسي هذه الشكليات قيمة كبيرة ذلك الوقت أسخر منها الآن.

قلت: كيف استطاع هذا الجندي أن يتقبل هذا اللون من الجوارب مع بنطلون كهذا الذي يرتديه؟

هذا اللون استفزني حقاً، كان لوناً فاقعاً وقد ضرب في مخيلتي عميقاً.

*

أمضيت الليل كله، وأنا أغفو وأصحو على صوت القصف والانفجارات، كنت أسمع الصيحات البعيدة والنداءات، صور كوابيس الحرب والموت وهي تختلط مع أصوات الجنود الأحياء، وعلى صوت المورس القريب مني كنت أمضي بعيداً في أحلام حزينة مربكة.كنت أغفو وأصحو مرة بعد مرة، وما بقي عالقاً في ذهني حقيقة هي صورة الجوارب الخضراء التي كان يرتديها هذا الجندي النائم بالقرب مني، والذي لم يلتفت نحوي كي أرى وجهه، لم ينقلب، لم يتحرك، لم يهتز، لم يشخر، لم يقل شيئاً، لم ينتبه لوجودي أبداً.

كلما كان الليل يمضي، كان الفضول يستبد بي كي أعرف وجه هذا الجندي بجواربه الفاقعة، غير أنه لم يتحرك أبداً.

*

في الصباح فتحت عيني.كان الضوء يغمر الموضع والقصف هدأ تقريباً، والجنود يمرون من أمامي ويتناقشون فيما بينهم، أما هذا الجندي بجواربه

الخضراء لم يكن يتحرك أبداً، لا هو ولا الخمسة الآخرون الذين ينطرحون على جدار الموضع ويتشاركون بالبطانيات فيما بينهم، كل شيء كان ينطق ويتحرك، وهذه الأجساد التي تقابلني لم تكن تتحرك مطلقاً، بعد دقائق امتدت يدي رغماً عني نحوه، هززته قليلاً...

-يا أخ...يا أخ...

لا صوت ولا حراك.سحبته قليلاً ليصبح وجهه بمواجهتي تماماً:

كما لو كان قد غفا منذ قليل، وجه صامت لا ينم عن أية حركة. وجه شاحب قليلاً، عيناه مفتوحتان نصف فتحة، وفمه فاغر تقريباً، شعره الأسود منسدل على جبينه، كان في العشرين من عمره..

نهضت... كاد الفزع أن يقتلني، صرخت محتجاً:

-لماذا جعلتموني أنام مع القتلى الليل كله؟

قال العريف:

-خشيت أن أقول لك هؤلاء شهداء... فترتعب وأنت في تجربتك الأولى مع الجبهة.

*

رؤية جندي ميت أكثر رعباً من موتنا نحن، موتنا نحن لن نراه أبداً، غير أن هذا الوجه يذكرنا بنهايتنا نحن وفنائنا. يذكرنا بلغز الموت، مثلما يذكر المرأة وجه طفل يولد للتو بلغز الحياة.

أهكذا ننتهي نحن أيضاً، مثل سر متكبر أو فكرة مثيرة للرثاء، وأنا أنظر إلى هذه الجثث الباردة أتساءل ما هو السر الذي يخلفه هؤلاء الرجال من موتهم؟ لا فدية من موتهم ولا رمز. إن وجه هذا الجندي الشاب لا يفضح

فقط الحادثة الشنيعة لوجودنا، فلو كانت هذه التراجيديا تتعلق بالموت لما
كانت تحتاج هذا التعليق كله، ولكن كيف يتحول موتنا إلى اختراع بطولي
من قبل الآخرين، وهو موت ولا أكثر؟ كيف يتحول هذا القبر المفتوح الذي
يفزع إلى ظل عميق من حياتنا، فننهض أمامه بصورة طقوسية وكأنه عمل
جبار وهو موت ولا أكثر؟ إنه ظل عميق لوجودنا، ظل عميق يتكئ على
الجدار ينتظر الرفش والمعاول كي ندفنه، أن نموت هذا الأمر لا يفزعني،
لكن نادراً ما تتحول هذه المعرفة إلى شيء نفكر به ثم نستنكره.

لماذا يموت هذا الشاب هكذا دون بكاء، هكذا... مثل كومة مرمية على
رف مغبر؟

هذه الوجوه المنطفئة لم تنفذ مطلقاً إلى عالم أليف تعرفه، وهؤلاء
الذين ينتظرون موتهم، لم أخطئ... لقد ابتسموا لي لأنني بعد قليل سأكون
مع هؤلاء الشباب ميتاً أيضاً، رويداً رويداً ببلاهة وصبر سأفغر فمي مثل أي
ميت آخر، أنتظر الحفرة والرفش والمعاول...

عمان 2009

كبش الأساطير

هذا اليوم، في الصباح الباكر، رسمت الشمس أشعة شتائية خفيفة على نافذتي في معهد اللغات الأجنبية في أمستردام. إنها شمس أوربا الشمال، شمس صفراء باهتة، ترتسم بشكل شفاف على الحدائق الغابية التي تمتد أمامي، فجعلتني مخدراً وكأني أحلم.

لكن بعد ساعة تقريباً من بدء المحاضرات حدث شيء غيّر هذه البهجة وضاعف الخيال في الوقت ذاته.

فقد ارتكب بروفسور اللغات القديمة (الآرامية، العبرية، والعربية) وهو الهر باور آخ، أول خطأ في حياته. لم يكن الخطأ مورفولوجياً في اللغة، ذلك أنه كان بارعاً في اشتقاقات اللغات السامية، إنما ارتكب خطئاً دلالياً في معرفة أن كلمة שָׂה في اللغة العبرية هي كلمة شاة في العربية. كان يقرأ نصاً من التوراة، حول إبراهيم وابنه والذبيحة...

في الظهيرة أخذت شمس الشتاء تنحسر شيئاً فشيئاً، وما زال طلاب معهد اللغات الأجنبية يتحدثون عن هذا الخطأ الذي وقع فيه بروفسور اللغات السامية، إلا أنا. لم أكن مكترثاً بهذا الأمر. ولكن كلمة شاة قد أطلقت ذاكرتي بعيداً على نحو ما، إلى أيام الحرب، حينما كنت جندياً في حرب الأميركان، وقد حدث أن أحد زملائي الجنود كان يحب الخراف كثيراً، كان معي في فصيل المغاوير 144، وقد مات فيما بعد أضحية للخراف التي كان يحبها.

أحم...شكراً لك أيها الجندي الصديق الذي كان معي في الحرب، لأنك تذكرتني، بعد أن نسيني الجميع. فما أن سمعتك تتحدث عني حتى جاءتني الرغبة بالكلام عن الواقعة التي حدثت في حياتي، بالرغم من يقيني من أنني ميت، والميت لا تأثير له على حياة الأحياء، ولكن لدي رغبة في أن أشرح لك ما حدث لي بالضبط أثناء الحرب، ربما هذا سيعوض لي عجزي عن فعل شيء في هذا العالم، عجزي ذلك الوقت عن إطلاق صرخة هائلة، بل عجزي عن محاسبة حقيقية للذين تسببوا بكل هذه الفاجعة. ذلك الوقت كنت أوغلت في الخوف، أما الآن فلا يهمني شيء، ولا أخفيك بأن لدي رغبة حادة منذ زمن بعيد بأن أخرج من قبري، وأن أسير في الشوارع لا بروح إنسان إنما بروح خروف هذه المرة، فمن الطبيعي أن تموت الخراف فتبعث في أجساد بشر يولدون للتو في الحياة. أو يموت البشر فيبعثون في أجساد خراف. إنها أسطورة التناسخ التي يؤمن بها الكثير من الحكماء والفلاسفة والعلماء الأصفياء. صدقني أنا أؤمن بهذا الأمر وأعتقد به بكل روحي وعقلي. الكثيرون يعتقدون أني أمزح أو أسخر أو أقول أشياء لا أؤمن بها، ولكني في الواقع أشعر بهذا الأمر حقيقياً وواقعياً كما أشعر بهذه اليد أنها يدي. أو بنَفَسي الذي يخرج ويدخل، أو بقلبي الذي يدق. نعم، أقول لك، نعم أيها الجندي الطيب:

أنا أعتقد إن الخراف هي نحن، إنها هم الذين نحن! هذا العالم كله من روح واحدة، ونحن نسبح بها كما تسبح الأفلاك في بحر السماء. إننا روح واحدة تتنقل كلما تبلى أجسادنا. أجسادنا الثياب التي لا تقاوم عنف الحياة ولا صعوبتها. إنها تتهاوى وتتقهقر. تضعف وتخبو، بينما الروح تسمو. تصعد إلى أعلى حينما ترى الجسد وقد بلي وتعفن. بعد ذلك تسقط في جسد

ون الآن وفي تلك اللحظة. ومن الممكن أن يكون جسد إنسان أو حيوان. سد كلب أو قطة. جسد بقرة أو خروف. جسد جمل أو ضفدعة. هذه هي الحقيقة التي أؤمن بها، بل لا أبالغ إن قلت لك أني أظنها الحقيقة الوحيدة على الأرض. بل لا حقيقة تعادلها ولا حقيقة تساويها أو تتجاوزها.

*

أعلم أنك تسخر مني الآن، تحك شعرك من أعلى! تزور بعينيك قليلاً. تبتسم ابتسامة هي ذاتها التي يواجهني بها الجميع، إن قلت لهم إني أؤمن أن أرواحنا وأرواح الحيوانات واحدة. يسخرون مني إن قلت لهم أنها من الكينونة ذاتها، ونحن نتبادل، في واقع الأمر، المواقع، فيما بيننا على الدوام. كما أني أؤمن أن الخروف هو أكثر الحيوانات براءة وسذاجة أمام لؤم البشر وخبثهم. مع أني أؤمن أن البشر ليسوا مرتبة واحدة، إنما هنالك مرتبتان، مرتبة البشر اللئام، ومرتبة الخراف البريئة!

ألا ترى حالنا نحن الجنود كنا في مرتبة الخراف البريئة؟ الخراف التي تعد ليوم الذبح؟

إنهم يربوننا ويسمنوننا مثل خراف. وكنت فيما مضى أتصور مثل كل الخراف أن هذا الدلال هو من طبيعة الحب ليس إلا. غير أن ساعة الحقيقة آتية لا محالة، وهي مثل الساعة التي يفطن فيها الخروف بأنه خدع، ومن من؟ من صاحبه.

سيفطن أن الرجل الذي يعطيه الطعام كل يوم، كي يربيه ويسمنه مثل والده أو والدته، وينظر له كل يوم بعينيه ليقيسه هل سمن أم لا، هل كبر أو لا، قد جاءه هذا اليوم لا بدلو الطعام ولا دلو الشراب، إنما بشيء آخر، جاءه بسكين حادة. ومثل كل يوم، ما أن رأى الخروف صاحبه الذي أحبه

حتى أقبل عليه. ركض هو أيضاً نحوه. إلا أنه سيرتعش غير مصدق أمام هذا الرجل الراعي، وقد أخرج سكيناً حادة بيضاء من وراء ظهره، شاهرها أمام عينيه بعد أن فغر فمه، وهو يتلمظ بلسانه، وعيناه تبرقان بعد أن تشمم خوف ضحيته فرحاً، ثم دكه على الأرض ليجز حنجرته.

ألا ترى أيها الجندي الطيب إن لحظة الخيانة من قبل البشر لا بد أن تكون آتية. ولحظة إدراكها من قبل الخراف تأتي على الدوام متأخرة. الخيانة هي حقيقة هذا الكائن الذي يربي، ويمنح الطعام لا لكي يديم حياة هذا الكائن، إنما كي يلتهمه. يربيه كي يستمتع بلحمه، كي يفترسه، كي يتلذذ بشيه وطبخه ويصنع منه وجبة شهية، يصنع منه الصحن المفضل.

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتبّل ضحيته ويضع عليها الصلصات والليمون. هو الكائن الوحيد الذي يصنع من القتل روسيتة. يصنع منه كتاباً للطبخ، ويتنافس القتلة الطباخون بصنع روسيتات الضحايا:

طبق لحم الخروف بالصلصة الحمراء!

طبق كبدة الخروف بالفلفل!

بروشيت الخروف المشوي!

يتنافس الطباخون في تدليل لحم الضحايا لتتطابق مع أذواق المفترسين في مطاعم وصالات راقية، بينما تقبل النساء على شراء هذه الكتب لتبدأ حفلة شي الضحايا. أما الخروف فهو صانع البهجة على وجه النساء في الحفلات، في المطاعم الراقية، في المنازل، أيام عيد المسلمين.

سيدي إنها الحرب التي يشنها البشر على كائن مسكين جاء ليحتمي بهم. كائن طيب، حيوان وديع! إنه مثلنا، نحن خراف البشر!

لا أبالغ إن قلت لك أيها الجندي الطيب! إن في الحياة خرافاً مثلنا، وفي الحياة ذئاباً مثل القادة والسياسيين.

ألم نكن نعرف أن ساعة الهجوم قريبة، أيام كنا جنوداً في سنوات الحرب، من طريقة تعامل الضباط معنا؟ ألا تتذكر؟ كل شيء يتغير في طريقة تعاملهم معنا، يمكننا أن نعرف هذا ببساطة من النبرة في صوتهم، التي تتغير فجأة.

مرة قال لي الجندي السرياني، ذو الوجه الشبيه بعجينة الشعير وهو يلتفت لي، ويعدل خوذته على رأسه:

- يتحول الضباط إلى رعاة محبين ونحن نتحول إلى خراف وادعين.

قال آخر في الموضع القريب منا وهو يسمع كلامنا، ويتدخل في حديثنا من وقت إلى وقت.

-عندما تقترب ساعة الهجوم تختفي من لكنة الضباط الألفاظ الخشنة والشتائم التي نسمعها كل يوم تقريباً!

قال الجندي الكردي السمين مثل برميل وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارته.

-حب الضباط لنا علامة على اقتراب ساعة موتنا!

*

نعم أيها الجندي الطيب، إن العلامة التي نستدل فيها على اقتراب ساعة الهجوم هي كثرة ذبح الخراف وطهيها. فهم يطبخون لنا حساء لحم الضأن وجبتين على الأقل في اليوم الواحد. يحمل جنود التموين لنا كل يوم طناجر كبيرة ملأى بلحم الضأن وهو يسبح في الصلصة الحمراء.

-كُلْ، كُلْ...! يقول لي العريف الأعور وهو يربت على كتفي بيد ويقدم لي الطنجرة باليد الأخرى.

عين واحدة مبتسمة. وجه جذل، ولسان يكاد أن يتدلى من الفم وهو يرى اللحمة المهروسة والمطبوخة جيداً تتخللها حمرة الصلصة. بهجة مرتسمة على وجهه على الرغم من أن الهجوم سيحدث في غضون أيام أو في غضون ساعات.

-يا لفعل لحم الضأن وتأثيره على معنويات البعض في الوحدة! قال الجندي السرياني وهو يكاد أن ينام فوق بندقيته.

قالها هكذا بكل بساطة! قالها بالبساطة التي تتصف بها كل واقعة حقيقية، واقعة لا تقبل الدحض ولا الإنكار. نعم إنها واقع إلى درجة جعلت الجندي الذي له وجه يشبه وجه السلحفاة يضحك منها. أما فأنا فلم أكن أضحك مطلقاً من هذا الأمر. بل كنت أجده أمراً تعيساً ومريراً. هكذا كنت أراه، ولا أبالغ إن قلت لك بأني كنت أحسب الأيام التي تسبق الهجوم هي أتعس الأيام، وأكثرها سوءاً، حتى أنها أكثر شقاءً من أيام الهجوم ذاتها.

فأنا كما تعلم لا أأكل اللحم مطلقاً. بل كنت أشمئز من كل طعام يحتويه. منذ طفولتي توقفت عن أكله أو أكل أي طعام يتكون منه. كان ذلك بسبب حادثة مرت في طفولتي لا يمكنني نسيانها أبداً. وهي أن والدي ذبح الخروف الذي رباه في حديقة منزلنا. الخروف الذي كنت ألعب معه، وأعطيه الطعام والماء، والذي كان يحبنا مثل فرد في عائلتنا. حين ذبحه والدي شعرت يومها بالخيانة. شعرت بألم كبير في بطني. شعرت بأن الأرض دارت ومادت بي. كان منزلنا كله مشبعاً برائحة الدم. لم أكن قادراً على النوم من الأسى، ومن رائحة الموت التي ملأت منزلنا. وحين قدمت لي

وناولني صحن الطعام، وهو مزيج الرز باللحمة، قدمته وهي مبتسمة، عرفت لحظتها كم نحن- أقصد البشر- قساة ومتوحشون، حتى أمي. نعم حتى أمي.

وأدركت منذ تلك اللحظة أن الطريقة الوحيدة التي أتخلص فيها من ذكرى هذه الحادثة هي أني لا آكل أي لحم مطلقاً، كي أتخلص فيها من آثار هذه الحادثة التي وخزت طفولتي هي أني لا أضع أي نوع من أنواع اللحم في فمي أبداً.

وهذا ما جعل الكثير من الجنود يسخرون مني. كما أن الأمر لم يكن محموداً من ضباط الكتيبة التي خدمت بها أبداً. حتى أن الضابط بالأنف المعقوف صرخ بي مرة بأعلى صوته:

-لا يمكن أن تقاتل الأعداء من دون أكل اللحم...

لقد عرفت فيما بعد عقيدة هؤلاء الضباط الذين كانوا يتحكمون بنا. إنهم يربطون بين إرادة القتال العنيفة وبين أكل اللحم بإفراط، ولا سيما الإفراط في أكل لحم الخراف! فهم يعتقدون - أقصد ضباط الكتيبة- كلما أمعن الجنود في أكل الخراف فستكون طاقتهم القتالية عالية، أكل اللحوم الكثيرة تزيد توحشهم وعنفهم! ولهذا يصرخ الضابط على الفصيل في الظهيرة، عندما يحين وقت الغداء، يصرخ بصوت عال وهو مبتسم:

-افتكوا باللحم الآن، فسوف يساعدكم على الفتك بعدوكم!

وبما أنهم يجبروني على أخذ حصتي من اللحم فإني أحولها سراً إلى صديقي الجنديين معي في الموضع، توما السرياني، وآزاد الكردي. هذان الجنديان عل الرغم من وداعتهما ولطفهما إلا أنهما يبتهجان جداً في فترة توزيع اللحم، ليس لحصتهما فقط، إنما لما أسربه لهما من حصتي أيضاً.

*

قلت لك أن ساعات الهجوم أفضل، فهي أقل قسوة وشقاء بالنسبة لي، بل أني أنتظر أن يحدث الهجوم بفارغ الصبر، كي أهجم على مستود التموين في الموقع الخلفي، وأسرق منه بعض أكياس الأرزاق الجافة، وهي في الغالب من البسكويت والفستق.

إن أتذكر شيئاً مهماً بهذا الخصوص فإني أتذكر يوم الهجوم الأخير، هذا اليوم الذي انحفر في ذاكرتي عميقاً. فقد بدأ الهجوم وأنا لم آكل شيئاً منذ يومين، وبعد أن هرع الجنود إلى القتال، واشتد القصف على المواضع، اغتنمتها فرصة لأسرق ما تبقى من التموين. هرعت بسرعة نحو الجملون الواقع خلف المواضع الشقية، المواضع القريبة من حقل الألغام إن كنت تتذكر هذا المكان.

دخلت سرّاً، كم كانت فرحتي كبيرة إذ أني وجدته فارغاً، ولم أجد أحداً هناك.

حينها أخذت أحشي جيوبي بما أعثر عليه من البسكويت ومن الفستق، بعدها أخذت بضع قناني ماء. ثم نظرت، كان هنالك عدد كاف من معلبات الحمص. وما أن وضعتها في حقيبتي حتى اقتحم المكان شخص ما.

حين رأيته هربت من الباب الخلفي، في البداية ظننت أنه لم يرني. لكنه تبعني حتى الفسحة التي تفصل المعسكر عن المواضع الخلفية. ركضت باتجاه أكبر موضع، وقد كان خالياً حينها. وهو موضع شقي عميق، إلا أن العدو كان يستهدفه بالقصف منذ ليلة البارحة. كنت ظننت أن الشخص الذي يتبعني سيتوقف عند هذا الحد ويعود إلى مكانه إلا أنه لم يتوقف! لقد تبعني. أطلق رصاصة في الهواء وأخذ يطاردني. قفزت الأكياس

التي تعبأ بالتراب وتوضع أمام المواضع لتحميها من الرصاص. وما أن بلغت نهاية المسافة الواصلة بين المنطقتين حتى سقطت في موضع هناك! كان الموضع محفوراً لكنه لم يكتمل بعد. لقد كان عميقاً بما يكفي لأختبئ به. انتظرت دقائق من دون صوت، ولكن بعد مدة من الزمن خيّل إليّ أني سمعت صوتاً خفيفاً، صوت أقدام تقترب من الموضع، فأخذت أتلفت يميناً وشمالاً. سمعت بضعة أحجار تضرب برأس الحذاء، أرهفت السمع، هنالك فترة سكون، لم أسمع أية أصوات أخرى.

قلت في نفسي ربما ابتعد عني، ولا بد أن ما سمعته من أصوات في المرة الأولى، كانت من خيالي. ولكن لسبب ما ساورني شعور غريب بعدها، شعور أجبرني على الشك بالأمر. لا بد أنه شرع برفع بندقيته الآن أو حربته واتجه نحو الموضع، وما أن يراني من بعيد سيطلق عليّ طلقة واحدة، لا يرديني فيها قتيلاً! إنما سيجرحني...أو سيعوّقني على نحو ما، ثم يجعلني عاجزاً عن مقاومته. يوقفني! يقبض على شعري بقبضته، ويتلّي رقبتي على الأرض، ثم يذبحني مثل خروف. أليس كذلك؟

لم يكن هذا الأمر إلا نوع من الشك الذي ينتابك وأنت تجد نفسك في مكان لا تملك من أمرك فيه شيئاً. وأنت في مكان لا ترى من خارجه أي شيء. بل لا تستطيع أن ترفع رأسك من حافته كي تراقب عدوك. كان شعوراً أقرب إلى الفزع. كتلة متداخلة من المخاوف لم أملك لها تفسيراً ذلك الوقت. ليس خوفاً من فعل المطاردة بحد ذاتها، والتي جعلت قبضة البسكويت تنسحق بيدي، فتمسكت بها خشية أن تضيع وسط هذه المزاحمة، إنما من اندفاعة الكراهية التي أحسست بها من هذا الرجل الذي أخذ يطاردني مثل عدو. كما لو كان شرطياً يطارد أعتى المجرمين الهاربين. إن شعوري بتلك العاطفة الساحقة والتي هي مزيج من الانتصار والاحتقار جعلتني أنظر إلى

نفسي بشكل مختلف. أشعرتني بضعفي. وأنا ساقط في هوة، ليست موئلا أبداً، ذلك أن الموضع وجد لتحمي نفسك به، لقد شعرت أن هذا الموئل هو ورطة. فأنا هنا له، كي يلتهمني! وهذه الحالة التي كنت أنا فيها جعلتني أفصل فيها نفسي عن وضعي، حتى بت أرى نفسي من أعلى، خروفاً مسكينا وقع في قبضة القصاب.

صاح بي بصوت إنسان:

-من أنت، وماذا تفعل هنا؟

-أنا الجندي كريم...

-اسمعْ جيداً. لا تخش شيئاً...لا وجود لأي سبب يجعلك تفزع مني، إن كنت أنت الجندي كريم، ولست جاسوساً من جيش الأعداء.

-أقسم لك أني الجندي كريم...

-أنت عراقي أم أميركي؟

-أنا عراقي طبعاً، ألا تعرفني من لهجتي؟

-ولكن الأميركان دربوا العديد من الجواسيس على التكلم باللهجة العراقية، وزرعوهم بيننا دون أن نتعرف عليهم...

-لا لا لست أميركياً أقسم لك، أنا عراقي وحتى شكلي هو ليس أميركياً!

-الأميركان صنعوا كل شيء يا رجل، صنعوا أشخاصاً يشبهوننا وجعلوهم يحاربون بيننا من دون أن نتمكن من التعرف إليهم!

-على العموم أنا الجندي كريم من فوج المغاوير 144...لا أشبه أميركياً راعي البقر، ولا راعي خراف أبداً كما أني لا أتكلم مثلهم ولو رأيتني ستعرف

اني أتكلم الصدق.

تريدني أصدقك؟

نعم أريدك أن تصدقني!

حسن اخرج من الموضع وبسرعة، دون أن تلتفت يميناً أو شمالاً وارم اسلحتك أيضاً، والأشياء التي سرقتها!

أفزعني صوته القاسي، ونبرته الحازمة. فقلت له وأنا أرتعد من الخوف:

-ولكن أرجوك قل لي من أنت، فأنا لا أستطيع التعرف على صوتك؟

-ولماذا تريد أن تعرف؟

-ألا يحق لي أن أعرف؟

-لا!

-وكيف تريد أن تعرف عني ولا تريد مني أن أعرف عنك؟

سألته بينما كان الخوف يشلني.

- لأن المهم هو أن أعرف أنا من أنت وماذا تفعل؟

-وألا يحق لي هذا بالمقابل، أن أعرف من أنت وماذا تفعل؟

-أنا العريف هنا ومن حقي أن أفعل ما أريد.

-آه أنت العريف إذن، من المفترض أنك تعرفني أنا الجندي كريم فلماذا تطاردني؟

-ببساطة لأنك هربت، إذا كنت أنت الجندي كريم فلماذا فزعت عندما رأيتني وهربت؟

-لأنك فاجأتني؟

-ماذا يعني فاجأتك، ماذا كنت تفعل؟

-كنت أبحث عن طعام لآكله...

-هل تريدني أن أصدقك...لقد وزعنا الطعام أيها الرجل قبل بدأ الهجوم كان طعاماً فاخراً من لحمة الخروف الطرية المطبوخة جيداً والمغمسة بصلصة الطماطة، لو كنت معنا ولم تكن جاسوساً أميركياً لكنت أكلت!

-ولكني لا أأكل الطعام الذي يتكون من لحم الخراف!

-أضحكتني يا رجل!

-لماذا؟

-لا أحد يصدق أن هنالك شخصاً لا يأكل لحم الخراف، ربما لأنك أميركي متعود على أكل الهمبرغر من لحم الخنزير والجبنة الشدر...قل الحقيقة إذن.

-لا أبداً هذا غير صحيح!

-ماذا كنت تفعل في الجملون؟

-كنت أبحث عن الأرزاق الجافة.

-الأرزاق الجافة؟

-نعم كنت أبحث عن شيء من البسكويت والفستق...

-لماذا لم تقل لي كي أعطيك منها!

-خفت أنك لا تعطيني...

كان عليك أن تجرب وتسألني، لا تذهب هكذا بنفسك، وتسرق منها مثل لص...

أنت محق!

-نحن في هجوم يا رجل، هل تعرف أن هذه تعد خيانة؟

-لكني لا أعتقد، أيها العريف الطيب، أني خنت أحداً!

-لو قلت إلى الضابط بالأنف المعقوف فإنه لن يسامحك، هل تعرف هذا أيها البغل؟

-أعرف ولكني أعرف أيضاً أنك عريف طيب ولا تفعلها.

-أنا طاردتك يا رجل ظننتك متسللاً من جيش الأعداء.

-أظنك ستسامحني أليس كذلك؟

-لا تقلق، أنا أسامحك لأنك غبي ولست شريراً.

ثم أطلق ضحكة كريهة مشبعة بالغرور، وقال:

-أنا جئت إليك...

بعد قليل من الصمت سمعت أقدامه تتقدم نحوي، تجمدت في مكاني، ثم أطل عليّ وأنا منحشر في زاوية من الموضع. أتحسس بيدي كيس البسكويت، وقد انهرس جزء منه ففاحت رائحته لتصل إلى أنفي. كانت بشرة العريف داكنة. كان وجهه أشبه بوجه فلاح، عيناه كريهتان ونظرته حادة. أما ملابسه فكانت موحلة، ربما لأنه كان في المعركة قبل قليل، أطل برأسه نحوي وأخذ يبتسم ابتسامة خبيثة...بعدها قفز إلى الموضع وصاح:

- ها أنا الآن إلى جانبك، كلانا الآن في الموضع ذاته!قالها وهو يضحك،

وقد ارتمى إلى جانبي وألقى بين قدميه سلاحه.

-هل تريد سيجارة؟

-نعم! قلت له، فأخرج سيجارة أشعلها وقدمها لي.

أخذت نفساً عميقاً، أما هو فقد أخذ يبلل السيجارة بلسانه، ربما لأنها جافة بعض الشيء، ثم رفع رأسه، حدق بي، وقال:

-هل أنت نباتي؟

-لا! ماذا يعني نباتي؟ سألته.

-نباتي يعني لا يأكل اللحم.

-أنا لا أعرف ما معنى أن أكون نباتياً ولكني لا آأكل اللحم!

-هل أنت مسلم؟

-نعم أنا مسلم!

-مسلم ولا تأكل اللحم...

-وما العلاقة؟

-أوه يا رجل كيف...أن لا تأكل اللحم يعني أنك بوذي أو هندوسي؟

- لا لست بوذياً ولا هندوسياً...

-المسلمون يأكلون اللحم...

-أنا أحب الخروف ولا أريد إيذاءه...

-الخروف؟

-نعم الخروف...

-هل تعرف قصة هابيل؟

-أعرف هابيل ولكن ما قصته؟

-عندما قدم هابيل قرباناً إلى الله وهو كبش، تقبل الله منه هذا القربان، ورفعه إلى السماء، رفعه بواسطة النار التي لا تحرق...

-النار التي لا تحرق؟

-أوه ألا تعرف هذا؟ هنالك ناران، نار تحرق، وهي النار العادية، ونار لا تحرق...النار التي لا تحرق هي النار التي تصعد بالقربان إلى السماء، وهي الدليل على أن الله تقبل القربان...

-وقد تقبل الله القربان من هابيل؟

-نعم...وظل هذا الكبش يرتع في الجنة.

-هل هو حتى الآن في الجنة؟

-في الواقع لا...

-لماذا؟ ماذا حدث له...؟

- يقولون إن الله أنزله على إبراهيم حينما أراد ذبح إسماعيل، فذبحه...

-ذبح الخروف؟

-نعم ذبح الخروف...والبعض يقول لا لم يذبحه إنما الخروف يرتع حتى الآن في الجنة...

أخذ نفساً عميقاً من السيجارة. بقيت صامتاً أنظر في وجهه.

فجأة سمعنا إطلاق أعيرة نارية، وصوت مدفع هاون أخذ يرمي على

مقربة من الموضع الذي كنا فيه.

أشاح بوجهه ومال برقبته العريضة إلى أمام، وقال:

-اسمع!

-ماذا؟

-إنه الهجوم!

-الهجوم؟

-نعم ألا تسمع. هنالك أعيرة نارية...ومدفعية بوم تك تاك تك تاك... بوم...

-نعم سمعتها!

-....

-هل تعتقد أن الأميركان يتقدمون. قلت له.

نهض من مكانه وهو يقول:

-طبعاً إنهم يتقدمون الآن... وعلينا أن نستعد للاشتباك معهم، نحن سنصدهم، لن نجعلهم يتوغلون أكثر.

نهضت من مكاني، عدلت نظارتي على عيني وحملت سلاحي.

نظر لي وقال بخبث:

-هل عرفت نوع هذا السلاح؟

-نعم إنها إطلاقات رشاشة بي كي سي، وصوت مدفع سبعون ملم...

-اسمع جيداً!

كما قلت لك أيها العريف الطيب إنه سلاح بي كي سي متوسط، ومدفع ...ون ملم!

طيب انظر هناك يا غبي ماذا ترى؟

لا شيء هناك. تلال، مجرد تلال...

-انظر مجدداً يا ابن الحمارة!

-لا أرى شيئاً. ولا شي!

-انظر إلى ذاك الدخان...هل أبصرتَ قط دخاناً بهذا اللون؟

-لا يا عريفي لم أر مثل هذا أبداً...

-هذا يعني ماذا يا جحش؟

-...

أَقبل بعض الجنود بخطوات منهكة، قابضين على أسلحتهم بأيديهم المتعرقة بسبب الحر، دخلوا الموضع وحين رأونا تفاجئوا. قال أحدهم:

-ماذا تفعلون هنا؟ لقد اقترب الأميركان، وستنشب المعركة البرية بعد قليل! إنهم يقصفوننا بجميع الأسلحة لكي نفقد مراكز السيطرة والتحكم. ثم التفت أحدهم وقال للعريف:

-عريفي كان الضابط بالأنف المعقوف يبحث عنك...لقد ظن أنك هربت! انفجر الآخرون بالضحك.

قال مرتعباً وقد تغير صوته فجأة كما تغيرت ملامح وجهه:

-لم أهرب لم أهرب...أنا لا أخشى الأميركان... من وشى بي وقال إني هربت؟كنت في الواقع أطارد هذا الجندي الذي سرق البسكويت والماء

وهرب إلى هذا الموضع...

-هل تركت المعركة مع الأميركان عريفي وأخذت تطارد جندياً من أجل قبضة بسكويت؟

انفجر الجنود بالضحك، أنا ضحكت أيضاً. لقد أصابني هذا التعليق بالانشراح. حينها ارتدى العريف خوذته وخرج. لقد غادر الموضع وهو يحني رأسه خوفاً من القصف الذي أخذ يشتّد شيئاً فشيئاً.

*

ما أن خرج العريف من الموضع حتى انفجرت قنبلة في السماء، قنبلة كبيرة أحدثت دوياً هائلاً، ورسمت على السماء الزرقاء لوناً فضيّاً جميلاً مزيّنا باللّونين الأحمر والبرتقالي.

-ربما سيضربنا الأميركيون بالنووي...قال أحدهم وكان يخلع جزمته لأن كسرة حجرة صغيرة دخلت وأخذت تعيقه حينما يمشي. أسند سلاحه على الأرض، هز البسطار بيديه فسقطت الحجرة ثم ارتدى حذائه وهو يبتسم.

-لا لا أظنهم سيفعلون ذلك، من يقبل منهم هذا، لن يصلوا إلى هذا الحد... قال آخر.

-ألم يضربوا اليابان بالنووي، هل تعتقد أننا بالنسبة للأميركيين أحسن من اليابانيين كي يوفرونا، أظن أن الأميركيين سيضربوننا بالنووي وسيجعلون نخل العراق مثل منفضة الريش...

أخذ الكردي يضحك وهو غلام ماهر في القتال...

-إذا كان النووي بهذا اللون الجميل فأفضل شيء في الحياة هو أن نموت بالنووي!

أجابه الجندي الأعور الذي جرح خمسة وثلاثون مرة في حروب العراق...:

-هل رأيت الفرق يا وجه النعال؟

-الفرق بين ماذا وماذا؟ قال الغبي.

-الفرق بين أسلحتنا وأسلحتهم...حتى الدخان جميل إنه أبيض ووردي، كأنهم ذاهبون لتحية عرس صديقهم، يضربوننا بأسلحة فيها اللون الأرجواني والأبيض...أنا أحب الأميركان!

-اسكت لا يسمعك أحد الحزبيين ويجعل من مؤخرتك صفيحة يجلس عليها الضباط!

*

كان الجنود الخمسة والذين يتشابهون إلى حد يمكنك أن تقول أنهم أخوة يهرشون رؤوسهم، بحركة ميكانيكية واحدة وهم ينظرون بفضول كبير إلى طرف السماء. أقصد ينظرون إلى الطرف الأيمن من السماء، وهو المكان الذي أخذت ترتسم عليه خيوط عديدة وأشرطة يعجبون بها، ويقولون إنها ملونة. بعد قليل حدث شيء غريب جداً، لقد أصبحت لا أرى ألواناً في الطبيعة مطلقاً هل تصدق هذا؟

إنه أمر غريب جداً، دون شك، لكني لم أعد أعبأ به، كنت أستمع إلى ما كان الجنود يتحدثون به. كنت معجباً لا بطريقة حديثهم فقط، وبفضولهم المعلق في السماء فقط، إنما بمعرفتهم. لقد كانوا يعرفون كل شيء تقريباً. فقلت لم لا أسأل أحدهم وقد كان يجلس على مقربة مني:

-هل شاركت في معركة ضد الأميركان؟

-نعم شاركت! قال مبتسماً.

-وكيف كانت؟

-كيف أشرح لك الأمر، إن مجرد تذكر هذه المعركة تجعل مصاريني تنهرس بنفسها.

-لماذا؟ سألته كي يستمر الحديث بيننا.

-كان الأميركان يستخدمون جميع الأسلحة ضدنا، غير أن التراشق لم يكن من قريب أبداً.

في تلك اللحظة سمعنا من الجهة الأخرى من الموضع عريف المخابرة وهو يقول:

-يوم حاسم هذا اليوم، لقد بدأ الهجوم.

في الواقع كنا سمعنا عريف المخابرة يقول هذا الكلام وكأنه يبول في سرواله.

تسمرنا نحن الستة ونحن نسمع عريف المخابرة صاحب الوجه الذي يشبه القنفذ يتكلم عن الهجوم. في الواقع إن سماع صوت هذا الغبي كان كافياً ليجعلني أتقيء، لقد كرهته منذ أول يوم دخلت فيه إلى هذا المعسكر، وحين تكلم معي لم أبتسم له مطلقاً. وكان يعلم أني أسخر منه، ولكني لم ينطق بوجهي كلمة واحدة تضايقني أو تزعجني.

كان الجنود الخمسة يعتقدون أن الأميركان سيقومون بضربنا بأسلحة نووية. فقال أحدهم وقد كان يعمل قصاباً فيما مضى، أن رائحة الأسلحة النووية مثل رائحة الخراء وسوف يرشقها الأميركان في وجوهنا.

*

أعدت السؤال على الجندي الذي كان يجلس على مقربة مني:

اسم حدثني أين اشتبكت مع الأميركان وفي أي معركة؟

اه في العام 1991، في حفر الباطن.

هل كانت المعركة قاسية...؟

أخذ نفساً من سيجارته، وقال:

في الواقع كان الهجوم شديداً، وكنا نترقب طلائع الجيش الأميركي وهي اتترب. كانت الشمس حمراء في طريقها إلى الغروب. بينما شدد الطيران المعاته الخاطفة على قطعاتنا. تكرر الأمر بشكل ملفت للانتباه. ومن خلال ريف المخابرة كنا نعرف الكثير عن المعركة، لقد عرفنا تلك اللحظة: أن الضابط الذي قال لنا أن الحرب ستكون قصيرة وخاطفة وسننتصر على الأميركان، قتل قبل بدء الهجوم.

الضابط الآخر أصبح لا يرد على رسائلنا من جهاز المخابرة، أعتقد أنه قتل هو الآخر.

مدفعيتنا أخذت ترد، لكن المروحيات أسكتتها على الفور.

الصواريخ المتعددة بدأت تأتينا تقصف آلياتنا نصف المطمورة في الأرض ذلك أن الطائرات التي تحلق بلا طيار، والتي تئن فوق رؤوسنا مثل النحل، كانت تبعث بالإحداثيات إلى أجهزة الكمبيوتر لتمكن الصواريخ من الوصول إلى أي هدف تريد. فأخذت أُحدث نفسي: قلت إنها النهاية يا صاحبي. نوعيتك من الجنود الفائضين عن الحاجة، سيخرجونك لقتال الأميركان ومن ثم ستسقط في أول اشتباك.

من الجهة الشرقية كان اللهب يلعق الأرض، ويخرج الدخان من أحشاء العربات المتروكة، الجثث محترقة ومرمية في كل مكان.

حين انتهى من كلامه، رمى عقب السيجارة على الأرض وقال:

-هيا لا تخف أراك وقد ارتعبت...لا...؟

-لا أبداً، قلت له، ولكني أريد أن أعرف.

-تعرف كيف تموت أليس كذلك؟ وقد انفجر الجنود الآخرون بالضحك

*

في اليوم التالي كنا نتجمع مرة أخرى، كنا نعيد شتاتنا، اليوم سيصل الأميركيون، لم يعد الأمر خافياً على أحد. بالأمس لم يكن الأمر مؤكداً، اليوم أصبح مختلفاً. هنالك شعور بأن الاشتباك سيحدث بعد ساعات ربما. الضابط أمام الموضع، أنفه من النوع المعقوف، شعره من هذا الذي يقف مثل دبابيس، كان نحيفاً إلى درجة تضحك الأرملة. العريف المغرور والذي طاردني ليلة الأمس يقف إلى جانبه، وجهه مثل صفيحة. يتمشى أمامنا نحن الخراف ليردد التعليمات العسكرية، والسعادة المرتسمة على وجهه طاغية. أما أنا فكانت رعدة الخوف بادية علي.

تبختر العريف كمن يريد أن يأخذ دور الضابط ذلك اليوم وهو يمسح شاربه:

-سننصب الكمائن للأميركان ونشاغلهم بالمناورات. الأميركان لن يتمكنوا منا أبداً، ربما سينجحون بمحاصرتنا ولكنهم لن يقهرونا، إذن علينا أن نعد أنفسنا لمعركة طويلة الأمد معهم، الخطة أن نقوم بالمناورات وأن نخزن العتاد، ونحافظ على الأرزاق ومنها الأرزاق الحية وأقصد الخراف. هل من سؤال؟

لم يرد أحد. تلفت يميناً وشمالاً ثم قال:

احرسوا الخراف جيداً! قال وهو يتمختر في مشيته، ويقلد الضابط في ...اته.

*

فرقة العجلات المدرعة تتقدم، آليات أميركية وبريطانية أخذت بالزحف ...ينا في الصحراء، وكانت عواصف الرمال تهب في وجوهنا. المحركات ...در ما يمكن لها من ضجيج، قال جندي المخابرة بصوت عال: إنهم ...زحفون نحونا.

التفت العريف إلى الجندي الذي بجانبه وسأله: كيف هي الخراف؟

-أي خراف قلت؟ نحن أيضاً خراف، جاء الأميركيون الآن وسوف يشووننا!

-كيف هي المعنويات؟ قال العريف.

-رائعة! لا أعرف من قالها، وهناك من أجابه: رائعة؟ ألا ترى الأميركان يبولون علينا بالصواريخ.

قال العريف متحسراً:

-آه لو كانت المعركة بالسيوف كما كانت أيام الإسلام، لكنا قضينا عليهم اليوم! ألم نقض على أجدادهم ذلك الزمان، هل قرأتم التاريخ؟

قال الجندي الأعور مازحاً:

- ولكن عريفي لو كانوا ذلك الوقت يملكون الطائرات لقضوا علينا أيضاً ولكن من حسن حظ أجدادنا أن الصليبيين لم يكن معهم طائرات.

-اخرس يا أعور لقد انتصر أجدادنا بالإيمان وبالمعنويات، لو كانت لديكم المعنويات سننتصر عليهم.

-والله يا عريفي كانت لدي معنويات كاملة، ولكن بعد أن أطا..
الحرب الأولى بعيني اليمنى لم تعد لي سوى معنويات عسماء لا تت..
بكل الاتجاهات...فانفجر الفصيل بالضحك.

في تلك اللحظة سقطت قنبلة على مقربة منا، فانبطحنا جميعاً، كا..
موجة من الدخان والتراب قد صعدت إلى أعلى، فرفعت رأسي شيئاً فش..
إلا أني شعرت بشيء غريب جداً، هو أن الألوان انتهت من ناظري، كما ..
كانت سقطت عن جميع الأشياء التي تحيط بي وصرت لحظتها أرى كل
شيء بالأسود والأبيض؟

التفت إلى صاحبي: هل ضربنا الأميركان بالنووي؟

-لا، لماذا؟ هل تشم رائحة؟

-لا ولكني صرت أرى الأشياء كلها بالأسود والأبيض! انفجر الفصيل بالضحك.

-هل هذا وقت مزاح يا رجل؟

-أقول لك والله صرت أرى الأشياء بالأسود والأبيض.

-أظن أن الأميركان ضربونا بسلاح فسفوري، أو أن هنالك رائحة غريبة تخرج من المركبات المسحوقة، ومن أبراج الدبابات التي تلعق بها ألسنة اللهب، ربما رائحة الجثث المحترقة، أو من الزيت الذي يخرج من أحشاء المحركات.

-أنت تتنبأ بالمعركة أم ترى أشياء لا نراها نحن؟

لقد انزعجت من طريقة كلامه معي بهذه الصورة فانفجرت في وجهه وقلت له:

خليق بنا أن نعلم بحلول وقت المعركة، أليس كذلك؟

قال الجندي الأكبر سناً:

لا تخش شيئاً، إنهم جبناء، أقصد الأميركان، إنهم جبناء جداً ويقاتلون بلا عقيدة!

التفت له الجندي الذي كان جالساً إلى جواري، هذا الذي خاض معارك كثيرة مع الأميركان:

-إن الحرب مع الأميركان ليست نزهة، وإننا يمكننا أن نستخدم الألفاظ التي تعجبنا لتوصيف جبن أعدائنا، في الحانة أو في كافيتريا المعسكر، أو في الماخور عند مضاجعة عاهرات وطنيات، ولكن ليس في ساحة المعركة.

عندها سقطت قذيفة مدفع، قذيفة مدفع أميركية الصنع...

-يا بابا... صرخ الجندي الذي بجانبي.

-هذه مصنوعة خصيصاً لتطيح برأسك أيها الغبي...قال الأعور.

أخذ الصوت يصك لي أذنيّ، أزيز المدافع الرشاشة بدأ يقترب، الرصاص أخذ يرتطم بواجهة الموضع، ويرتطم بمركبة موضوعة في المقدمة.

قال الجندي الأكبر سناً وهو يضحك:

-هيا أطلقوا الرصاص أريدكم أن تروني شجاعتكم يا رعاة البقر يا خراء هوليوود.

إلا أن هذا أثار الجندي الجالس إلى جواري، والذي يعرف الأميركان جيداً، فقد اشتبك معهم أكثر من عشر مرات قبل أن يصلوا إلى بغداد:

-اخرس! إنهم جنود تلقوا تعليماً أحسن من جدّ جدّك. جنود مَهرة أيّها

البقرة. مخلصون للحرب. ليسوا رعاة بقر، ولا ممثلين في هوليوود، إنهم الأعداء يا ابن الكلب وسوف تبدي احتراماً لقدرتهم عند نسف دماغك!

*

في الواقع، كان الغبار قد ارتفع في الصحراء، أما الجو فقد كان أميركيا وبريطانياً بامتياز، الطائرات تقصف كل ما تراه يتحرك. نظر العريف بالمنظار، وصرخ:

-احرسوا الخراف جيداً قبل أن نلتحم مع الأميركيين والبريطانيين في المعركة. قال العريف.

-الأميركان والبريطانيون قادمون، صاح جندي من جهة اليمين.

-من قال ذلك؟ صرخ العريف عليه بعنف.

-وصلتنا إشارة!

-من أين جاءت الإشارة من مؤخرة أمك!

-لا سيطرة لنا على الجو، لا استطلاع ولا قدرة على معرفة من أين يأتي العدو، لكن هنالك صخب، انفجارات المدافع تتعالى، إنهم جاءوا ولا شك، وسوف يشووننا كما يشوون الخراف في الفرن. لا إمدادات، ولا مخرج...ها هم في كل مكان إذن.

-أين هم؟ صرخ العريف.

- استداروا شرقاً! قال الراصد.

-حسن احموا الخراف، هي التي ستنجينا حينما يطبق علينا العدو. قال العريف مرة أخرى. لم يكن خائفاً من شيء، كان متأكداً أن الأميركان

والبريطانيون سيحاصروننا ولن يقضوا علينا، عندها سوف نشوي الخراف
والإبل!

يراودني إحساس غريب، أن القوات الأميركية والبريطانية سوف تطبق
علينا من كل الجهات، سترتفع هبات سوداء من الدخان، الرمال تتعالى في
الفضاء، عليهم أن يزيلونا قبل أن تصلنا الإمدادات.

-أية إمدادات؟

-لا أحد يفكر بنا اليوم. قال أحد الجنود بيأس.

هنالك أصوات مدافع تقترب. أصوات انفجارات متعددة ومن أسلحة مختلفة. حركة العجلات بدأت تقترب، بعد أن كانت بعيدة. ثم جاءت الطائرات، قصف متقطع في البداية ثم أصبح متلاحقاً مثل سيل المطر. كان البعض ينظر إلى الدخان. والبعض الآخر يتحسس سلاحه ويتهيأ للدخول في المعركة، بينما كان بعضهم يكاد أن يفعلها في بنطلونه.

صاح العريف: "هل أنتم قادرون على خوض الحرب؟ القتال شرس على الجهة الأخرى، الأميركان والبريطانيون يتوغلون في الصحراء؟" همس في أذني الجندي الأعور: "في الواقع قام الأميركان بحركة التفاف غريبة، لقد ذهبوا من خلفنا ودخلوا البصرة، وسيطبقون علينا من كل الجهات إنهم سيضعوننا في الفرن هذا كل ما في الأمر."

لم أكن أصغ إلى هذا الأعور الذي أطاحت الحرب بنصف جسده، وليس بمقدوري في تلك اللحظة سوى أن أرى الدخان، أسمع أصوات البنادق من بعيد، أسمع حركة العجلات وهي تقترب، بينما العريف ينظر في منظاره إلى الجهة الشمالية يستطلع اقتراب الأميركان والبريطانيين وبدء المعركة الفعلية.

-ضعوا الخراف في الموضع. كم خروف بقي لدينا؟

-عشرة خرفان عريفي.

-حسن يمكننا أن نصمد أسبوعاً آخر. أجاب العريف مبتهجاً.

صاح الجندي المسئول عن مطبخ الكتيبة:

-عريفي هنالك خروف شقي جداً.يركض في كل اتجاه لا يمكن لأحد إيقافه...

على الدبابات أن تمر بنا، نحن هنا في المكان، ولن نتزحزح، على الجهة الشرقية هياكل دبابات محترقة، مدافع مسحوقة صبطاناتها، ومعوجة.

-هل هذه أسلحة أميركية؟

-لا هذه أسلحة عراقية.

*

أقسم لك لا أعرف كيف حدث هذا الأمر مطلقاً، كما لو كان حلماً، شيء من الارتباك ربما أصابني لحظتها، ولكني لم أكن متوقعاً كل ما حدث ذلك اليوم. شعرت بأن الخروف المسكين سينفجر عليه لغم ويموت.

كان الجنود يضحكون ربما من أجل أن يداروا خوفهم بعد انفجار مجموعة من القنابل فوقنا. قنبلة أخرى جاءت قريبة من الخروف الهارب، فقفز مذعوراً، وأخذ يركض باتجاه حقل الألغام. لا أعرف كيف شممت رائحة خوفه من بعيد، أرجوك لا تسخر مني، لو كنت تعرف الحيوانات كما عرفتها، لعرفت أنها تطلق رائحة عند خوفها، ورائحة عند حبها، ورائحة عند شعورها بالأمان...أقول لك لقد شممت ذعره، المسكين توقف منتصف الطريق، ماع، تلفت، ولم يعرف أين يذهب.

[illegible] شعرت بالخوف أنا أيضاً، شعرت بخوفه في داخلي، فقفزت من [illegible]ي نحوه كي أنقذه، أصابتني سورة من الخوف من أجله، فركضت نحوه [illegible]سرته، كي أمسك به وأعيده إلى الموضع. قفزت من مكاني نحوه، إلا أن [illegible]ي انزلقت فوق خرائه. كانت كمية من البعرور سوداء تحت قدمي هذا [illegible] شعرت به لحظتها، إلا أن الجنود صاحوا كلهم بصوت واحد:

حقل الألغام...

-ماذا؟ قلت وأنا أمسك الخروف.

-ألغام لا تتحرك!

-إنها كمية من البعرور تحت قدمي! قلت لهم.

-قلنا لك لا تتكلم!

-ماذا؟

-اسكت يا ابن الغبية لا تتكلم وحافظ على قدمك ثابتة!

-أحافظ على قدمي ثابتة فوق البعرور.

-إذا أردت أن تنجو؟

-طبعاً أريد أن أنجو!

يمكنك أن تتخيل التعبير الذي كان مرتسماً على وجهي تلك اللحظة، وأنا أمسك بالخروف بكلتا يدي، وجهي إلى وجهه، وتحت قدمي لا بعرور فقط، إنما لغم أيضاً. أتخيل وجهي وهو ينتظر ويترقب صوت البووم التي من الممكن أن تحدث في أي لحظة!

- بماذا تشعر الآن؟ قال لي الجندي الذي قاتل الأميركان والبريطانيين

فيما مضى.

-أشعر بأني أدوس على كومة بعرور، وتحتها أسمع طقطقة، لا عِلم لي بماهيتها، طقطقة أشبه بتلك التي تند عن صفيحة معدنية، مثل صوت آلة ينبعث منها صوت زنبرك.

-هل هو لغم...أم قنبلة مخبوءة؟

-لا وقت لدي للإجابة أيها الخراء، سواء أكان هذا أم ذاك، كلها ستنفجر في النهاية وتجعل من قدمي مطراً من اللحم يهبط من السماء إلى الأرض. ألا تفعلوا لي شيئاً؟

انفجروا بالضحك.

-إنني عالق هنا أليس كذلك؟ قلت لهم. لم يجبني أحد!

كنت أتعرق. خط من العرق أخذ يتصبب من وجهي، خط من العرق أخذ يسيل من أعلى ظهري إلى الأسفل، أخذ العرق يتصبب من جبيني ومن وبين إبطي ومن أقدامي! لقد كنت أرتجف، ولا أستطيع التحكم مطلقاً بجسدي! كنت أتساءل أيضاً:

- هل أترك الخروف، أحل يدي عنه وأتركه يسير على الأرض ويبتعد عني، أتركه لينجو؟ أما أنا فسأبقى في مكاني، ريثما تأتي الهندسة العسكرية وتبطل اللغم تحت قدمي مقاس 41، فأزيح قدمي عن كومة البعرور التي تركها الخروف على الأرض وأنجو!

لكن ماذا يحدث لو داس الخروف لغماً آخر وانفجر علينا كلينا، ماذا ستكون النتيجة؟ أو لو قصف الأميركيون الآن المكان الذي أنا فيه؟ أو لو

سقطت قنبلة قريبة مني؟ سأهتز حتماً، عندها سنصبح أنا والخروف في عداد الموتى. لو تعبت قليلاً ورفعت قدمي سأكون في عداد الشهداء هذا اليوم. إذن علي أن أحافظ على قامتي متجمدة وعلى قدمي ثابتة، وعلى هذا الشيء الصلب أن يبقى متماسكاً تحت البسطار!

يا إلهي ماذا لو كان هذا اللغم مثل كل الألغام العراقية العتيقة، وهو من صفقة فساد في الجيش، أو عتيقة إلى حد أنها لا تنفجر...هذا كل ما أتمناه، هذا كل ما أشعر به تلك اللحظة، فتسيل على طول عمودي الفقري أفعى صغيرة تتلوى من العرق. أشعر بفمي وقد جف تماماً، أما من ابن قحبة من هؤلاء الجنود بدلاً من طرح أسئلتهم الغبية أن يأتيني بكأس من الماء.

"اسمعوني جيداً أيها القنادر تحت قدمي لغم، إن رفعتها قليلاً سوف أطير عند ربي حتماً هذه الليلة سأتعشى عند الرب."

فجأة سمعت ضوضاء. ما زال الخروف بين يدي. ثم عم سكون تام في المكان. سمعت دوياً لا أعرف من أين أتى. ذهني كان في حالة يقظة. ساقي تسترخي، وتستريح. لم أعد خائفاً من أن يتفجر اللغم، لم أعد أرغب بتخفيف الضغط على الأرض، لئلا أسمع الطقطقة. أصبحت لا أحس بتشنج عضلات رجلي، ولا أفكر بتخليص نفسي أو تخليص الخروف، أشعر بأحاسيس غريبة، شعور رهيب بالخفة، أشعر بأني أطفو عالياً، أشعر بالخفة أنا والخروف كلانا، بعد أن قررنا أن نرتفع عن الأرض، نصعد إلى السماء لم تعد الأرض تحتملنا، يرين عليّ السرور لمرآه بين يدي.

أدار عينه باتجاهي لم ينبس بكلمة، كنا سعيدين، نصعد نحو السماء معاً، مثل الرمال وهي تصعد بفعل الرياح، أمضينا أكثر من ساعة صامتين، يتفرس أحدنا في وجه الآخر، تعلن ساعة يدي الساعة الثانية عشرة، وكان

كلانا صامتين، يتفرس أحدنا في وجه الآخر. قدمي فوق الغيم منذ [illegible]
ساعات. لن يلبث الليل أن يسدل أستاره، وحين وصلنا هناك أخذه الرب
بيديه وأنزله يرعى في الجنة الموجودة فوق الغيم مع خروف هابيل، أما
أنا فقد أعادني إلى القبر الذي حفره الأميركان والبريطانيون على الأرض لي.
وهو قبر جماعي لجنود الوحدة، بعد أن ماتوا جميعاً في المعركة...

بروكسل 2018

ثلج النهار الملتهب

أيها القائد، احتفلنا بنصرك وزيناك بالأوسمة، توجناك وغنينا لك، وجلبنا لك سيدات وسادة أجلسناهم في الصالة الشديدة الإضاءة الفارهة، فأطلقوا حديثاً حماسياً وجسوراً لبطولاتك ونصرك. ها نحن نعظمك إلى حد القداسة، نعبدك، ننشد لك، وهناك مؤرخون موسوسون بكل شيء يخصك. إنهم يكتبون عن كل حركة من حركاتك، إنهم مهتمون بثيابك، بلون قبعتك، بشاراتك، بابتسامتك وبغضبك! وهنالك مؤرخون يبالون حتى بما تأكل وما تشرب وما تشتهي! ولكن لا أحد منهم يبالي بحذائي المنقوع أو بأقدامي المتجمدة.

قبل بدء الحرب بيوم واحد، كنت في طريقي للالتحاق بوحدتي العسكرية. غير أنني تفاجأت قبل الوصول إلى الدرب الصاعد إلى الجبل بعاصفة ثلجية، فتهت، واشتبهت عليّ الأماكن وكان البياض طاغياً ومهيمناً على الفضاء بصورة كلية.

لكنني تبينت من خلال النديف الأبيض الهابط من السماء قرية مسيحية محاصرة بقرى الأكراد والتركمان. قممها مغطاة بأشجار الجوز والسرو وأنواع أخرى من الأشجار لا أعرفها. وصلت الكنيسة أولاً، وكان هنالك عند بوابتها حشد من السريان والكلدانيين حيث الراهب يقف في المقدمة، والساعور يتعلق بحبل ويقرع الأجراس.

كنت الجندي الوحيد في قرية مسيحية، نفاها التاريخ على قمة جبل. تبعد فرسخاً أو فرسخين من المدينة العظيمة التي أسسها فيما مضى آشور

بانيبال. كانت العاصفة الثلجية قد سدت الطرق تماماً ولم يعد هنالك
وسيلة أخرى في العثور على كتيبتي، عندها تركت أمتعتي عند فلاح آشور
كبير في السن، وذهبت إلى منزل ساعور الكنيسة المشيد في أعلى القم
كان الصعود وعراً وشاقاً. وكان علي أن أمر بممر ضيق قبل أن أصل المنز
حيث الحمير والبغال التي تحمل جليكانات الماء تسير ببطء، وكان علي أن
أسير خلفها. وهنالك خراف تلعب في الباحة، وديك يصيح كأنه ينادي الثلج
تسير خلفه سبع دجاجات تقوقىء.

في الباحة رأيت النساء يجلسن على السجاد حلقة، نساء جميلات بمختلف الأعمار، أما كبار السن بالوجوه القديمة التي تشبه الحجر واللحى البيض كانوا أشبه بالتماثيل اليونانية القديمة. جلسوا ليدخنوا السجائر اللف، ويأكلوا قطعاً من الخبز الرقيق مع الجبنة البيضاء، ويتحدثوا فيما بينهم عن الحرب القادمة. أما ساعور الكنيسة فكان يعد الشاي، ويسخن الخبز على النار الموقدة في الزاوية.

قلت له:

- يا أبتي أنا جندي، جئت ألتحق بوحدتي العسكرية هنا غير أن العاصفة الثلجية فاجأتني وتهت ولا أعرف كيف أصل. وأخشى أن أذهب وحدي فأعلق في حقل للألغام، أو أن أسقط في إحدى الكمائن التي ينصبها الجيش للجواسيس والمتسللين.

ابتسم لي وقال:

- أنا أعرف أين كتيبتك، لكن العاصفة الثلجية لن تتوقف هذا اليوم. واقترح عليك أن تبيت عندي الليلة وفي الصباح سأشير لك إلى الطريق الذي تسلكه.

فوافقت.

ذهبت وجلبت أمتعتي من المعبد الآشوري الذي احتميت فيه، وانتقلت إلى منزل الساعور.

كانت ابنة شقيقته تعد حفلة زواجها، وهنالك وليمة عرس، وحشد عائلي، من فتيات جميلات وصبيان يؤدون الدبكة بطريقة رائعة. شربنا النبيذ وأكلنا الجبنة والخبز وأنا أستلقي على مقربة من النار. إنها قرية مسيحية وادعة ومسالمة تقع في أعلى الجبل، تحيط بها مضائق تمتلئ باللصوص والمهربين.

يا له من مصير غريب مصيري هنا. جئت لألتحق بالحرب فوجدت نفسي وسط مجتمع سعيد يتراءى لي خلف آلاف من الأسرار. إذ أخبرني الساعور أن ابنت أخته كانت تحب أرمنياً وتزوجته، وقد قتل في الحرب السابقة، وها هي تتزوج مرة أخرى آشورياً سيشارك في الحرب، وهو يخشى أن يكون مصيره مثل مصير الزوج السابق. في المساء كنت جالساً عند الحائط تحيط بي مريم العروس وزوجها أدور، وبعض الكلدانيات الجميلات بملابسهن الشبيهة بملابس نساء أرميا اللواتي يصفهن التوراة.

ذلك المساء السابق للحرب تملكني فرح عارم بسبب هذه الضيافة العذبة والترحاب القروي الساذج. كنت أشعر بفيض من الحب إلى هؤلاء الناس، ومجتاح بفيض من الفرح أمام حزن البلاد الكبير. كنت الجندي بملابس الكوماندوز، بوجه متوهج أمام النار، يغني مع آنسات نينوى اللواتي يغنين بالآشورية.

*

في الصباح أيقظتني مريم بهدوء كبير، كنت مضطجعاً على سجادة

من وبر صوف الشياة، ومغطى ببطانية ناعمة مصنوعة من صوف الما،، وعندما فتحت عيني خلتني في أطلال قصر آشور بانيبال، وأن أميرة ..! توقظني وهي تحمل لي إفطاري من بيض الدجاج والخبز والشاي. قالت إ! خالها الساعور ينتظرني في الكنيسة، وعلي أن أذهب للقائه.

فطرت على عجل، ثم حملت أمتعتي، سلمت على مريم وأدور وخرج، للقائه.

لم أكن أعرف أن الحرب قد اندلعت إلا حينما رأيت الطائرات وهي تقصف القرى المقابلة للسفح. أشار لي الساعور إلى الاتجاه الذي أسلكه. قال علي أن أسلك الوادي فمن المستحيل أن أخترق القرى المسيحية المشيدة في الكتل الغرانيتية للجبل، لأنها محوطة بأسوار من الصخور. حيث كان المسيحيون يعيشون بخوف دائم من الأتراك والأكراد، فيما مضى. ومع أنها محصنة، إلا أنها كانت تسقط بسرعة أمام أعداء غادرين ومبتذلين، ولكن اختراقها في هذا الوقت من العام هو أمر متعذر.

وهكذا انحدرت في أودية محترقة بالشمس صيفاً، ومطمورة بالثلج شتاء. أودية خالية من الحياة، لا شيء فيها سوى باقات من أشجار السرو، والصخور الحمر المغطاة بالثلج. كان الجو ساكناً ملبداً بغيوم كثيفة. وكلما أتقدم يصبح أكثر صخباً، على صوت الطائرات التي تقصف وعلى الضياء الفسفوري للمدافع وهي تضرب الجبل.

بعد مسيرة ساعتين في الثلج أقلتني سيارة عسكرية وانطلقت بي نحو الكتيبة. على الطريق كانت الخلوات تمتص ضجيج وصخب الأرتال العسكرية المتقدمة. فثمة حشود للجنود على طول الطريق تصطف. أقدامها غائصة في الثلج. وأثناء الصعود انبسط أمامنا قوس أبيض يحاذي

القمة. وكلما كانت السيارة تتقدم، كنت أستمع إلى صوت المدفعية وهي تهدر من بعيد. في البداية توقعت بأنها مدفعيتنا! ولكن عندما اقتربت من القمة التي كنا نصعدها بطريق ملتو، تكشفت لي الحقيقة! إذ أخذت القمة الأخرى وهي أعلى من تلك التي كنا نصعدها، تنبسط سفوحها أمامنا، وهي الأقرب إلى تركيا.

ثمة حشود كبيرة من الجنود الذين يهبطون بآلياتهم العسكرية وأسلحتهم متوجهين إلى جسر حديدي يربط بين القمتين، أي بمعنى آخر أنهم يذهبون إلى القمة الأخرى.

-هل أخطأنا الطريق؟

-....

فجأة أصبحنا أمام قوة كبيرة من الحرس الجمهوري، وهي الفرقة الذهبية التي لا تستخدم في المعارك العادية، إنما في المعارك الخطرة وحسم مواقف عسكرية صعبة.

ما أن ترجلنا من السيارة حتى رأينا على حافة السفح جثثاً لا عد لها مدفونة في الثلج. كانت سيارتنا هي النشاز الوحيد في صعودها إلى الجبل. ذلك أنها فاتت نقطة التفتيش قبل اندلاع الهجوم، وقد صعدت إلى أعلى. بينما جاءت الأوامر إلى سيارات الأعتدة والتموين بالتوقف ريثما ينجلي الموقف، فكان وصولنا مفاجئاً لقوات الحرس الداخلة تواً إلى المعركة. كان جنودها المتميزون بملابسهم المرقطة، وشاراتهم، وأعلامهم الحمر على نقطة الجسـر يشيرون ببنادقهم نحونا ويصرخون: "قف... لا تتحرك.قف..."

رأيت جنود الحرس وهم يصرخون، يصيحون، يؤشرون بأيديهم، رأيت فجأة بنادق، حراباً، خوذاً حديدية، وجوهاً غاضبة، متعرقة، ساخطة. شيء

من الغضب، شيء من الارتباك، شيء من القسوة، شيء غير مفهوم بالنسبة لنا. نزل السائق وقال لهم أننا ملتحقون بفوج المغاوير 144! قالوا له أنه أبيد تماماً في المعركة!

قلت في نفسي:

هذا يعني كل أصدقائي قتلوا.

يا لبساطة الجملة:

- أبيدوا تماماً في المعركة!

أشاروا لنا إلى طريق آخر للالتحاق مباشرة بالمعسكر، وجعلونا ننحدر قليلاً، وفي انحدارنا انكشفت لنا ساحة المعركة: كان القتال قد اندلع، وقرى الطريق كانت تشتعل، والعائلات التي تحمل صرارها تبحث عن ملجأ لها بسبب غارات الطائرات، حشود من المدنيين هاربة، باحثة عن مكان آمن. خيول وبغال ميتة وهي تحمل جليكانات الماء، أشجار محطمة وممددة في الطرقات. حشود من الجنود يحملون أسلحتهم ويتقدمون.

-لماذا هم يصعدون إلى أعلى؟ لماذا لا يلتفون حول السفح، لماذا لا يهبطون إلى أسفل؟

- لا بد أن إنزال العدو من الجهة الأخرى من الجبل.

كانوا جنوداً من قوة المشاة الآلية يترجلون عند منعطف الطريق الجبلي. يتقدمون نحو قلب المعركة، يتقدمون بصعوبة في الثلج. وعدد من الجنود القتلى يتساقطون من أعلى ويتدحرجون إلى أسفل. العديد منهم يختفون بلمح البصر وسط كتل الثلج. العديد منهم يسقطون ممزقين بالرصاص أو بشظايا المدفعية ثم يتأرجحون فوق الأشجار. آخرون يتقدمون

ويحتمون خلف الصخور، بعضهم تقتله الحجارة التي تتشظى في الفضاء بسبب المقذوفات التي تستهدفها، بعضهم يمشي، بعضهم يركض، بعضهم يتعلق بسيارات أخرى تتبعهم على الطريق المعبد، ثم تصيبها قنبلة فأرى نثيث دمهم على الثلج...

قال سائق السيارة العسكرية:

- علينا أن نترجل ونعبر نحو الجهة الأخرى، الجهة الأكثر أماناً.

فترجلنا وعبرنا، وأخذنا نتعثر بالجثث المطمورة بالثلج. صورة لا تفارق ذاكرتي هي وجوه الجنود القتلى، جثثهم نصف مطمورة في الثلج، ووجوههم وجوه فلاحين فقراء فاغرين أفواههم، أو مبتسمين كما لو كانوا أحياء.

فعندما يتذكَّر الآخرون الثلج مرتبطاً بالتزلج وبالسفر إلى المدن البعيدة، أتذكره بحيوية كما لو كانت محفورة بالتيزاب. فوجوه القتلى في الثلج أكثر رعباً من وجوه القتلى في الحالة العادية. إنها وجوه ميتة لكنها أشبه بوجوه الأحياء. وخيط الدم النازف يبقى حياً، قانياً، حتى لو بعد أيام.

*

أستعيد هذه المشاهد وأنا جالس في بار الديك قرب مبنى البورصة في بروكسل. كان الثلج قد هبط قبل ساعات وتغطت الأرض باللون الأبيض. أشرب كأساً من الروكار الوردي وأقرأ في صحيفة فرنسية، نصف الأخبار فيها عن حروب متفرقة تحدث في هذا العالم، كأنها تحدث في عالم آخر.

أنظر باستقامة إلى فناء واسع بطابوق أحمر فيه العديد من النوافذ، هبط الثلج فيه على الأصص الموضوع في السندانات.

-انظر عالياً...

على الشرفة تميل فتاة جميلة تنفض الثلج عن الأوراق الذابلة، وتنظر إلى الباحة حيث مجموعة من الشباب يتنزهون بفرح غامر.

-بماذا عساهم يفكرون؟

دراما الحرب بأكملها تتداعى في بالي وأنا أنظر إلى فتاتين جميلتين تتمازحان في الشارع!

- من منهن واقعة في الحب يا ترى؟

صغار بعيون مباركة يرتدون ملابس جميلة ويذهبون إلى المدرسة.

- سيصبحون شيوخاً إن لم تلتهمهم حرب أخرى في أوربا.

تضحك فتاة قربي، ألتفت لها...

-اضحكي أيتها الجميلة! فسرعان ما يذهب العمر.

أرتد إلى وراء...

-آه الأعوام المباركة هي أعوام الحب لا الحروب ولا الانتصارات.

هناك من خلف زجاجة البار أنظر عروساً ترتدي فستانها الأبيض. تك تك. يلتقط لها عريسها صورة بكامرته.

- لماذا يرتدي بذلة بمقاس أكبر من حجمه؟

لا يهم! شخص آخر يتدلى شعره على عينيه، وسيم مثل شباب سبارطة، وأنا مثل حكيم يوناني ينظر ويرتشف من كأسه.

- افرحوا أيها الشباب...افرحوا لا تصغوا إلى نواقيس الكنيسة...اصغوا إلى

الثلج وهو يهبط مثل موسيقى الشتاء.

أه تذكرت أنه يوم الأحد وأنا في بروكسل، حيث بعض الأشجار خارج ،ار الديك، ستطلق كل عام أغصاناً خضراً، فاليوم هو يوم الثلج، وغداً تأتي الشمس حيث لا مجال للغيوم المعتمة.

جاءتني النادلة مبتسمة:

-هل تطلب شيئاً سيدي؟

ابتسمت لها وقلت.

-كأس آخر من الروكار، من فضلك.

شباب في العشرين جالسون هناك وهم يضحكون.ابتسمت لهم.

-في عمرهم كان عمري أيام كنت جندياً في العراق. وأصدقائي الذين أبيدوا تماماً في الوحدة العسكرية كانوا بعمرهم أيضاً.

صمت قليلاً. وتذكرت بحيوية كاملة ذكريات العشرين من عمري وصورة الثلج محفورة بالتيزاب:

أنا أتذكر الثلج. شيء أبيض مليء بالجثث. خلفه منازل مهدمة، ومعدن مصهور مختلط بالعظام. أتذكرُ القصف مثل توهج الفرن الأحمر، والرجال يسيرون في الثلج البارد، لسعاته مثل الأتون المتلظي. حاملين بأيديهم المتجمدة أسلحتهم. يتقدمون بصعوبة إلى أمام وهم يعلمون أن هنالك في انتظارهم أكفان الطبيعة البيضاء، هي نهاية هذه الخميرة الحية التي اسمها الحياة. سينامون ربما بعد ساعات مثل الحدادين والشظايا مغروزة عميقة في لحمهم وعظامهم. فلا الموت ولا الأزهار ولا الثلج سيزيلها عنهم. وسيذهبون في نهاية المطاف، إلى الله بعضلات ممزقة، وفي أجسادهم

رصاصات من كل نوع.

بروكسل 2018

كأس بيرة غنيس إلى حنا...ذلك البحار القديم

بثلاث ساعات، وخمسة كؤوس بيرة غنيس، والعديد من سجائر المارلبورو روى لي (حنّا) قرناً كاملاً من تاريخ عائلته في مدينة البصرة.

*

كنت التقيت (حنّا) أول مرة في العام 2003 في مقهى الهافانا في دمشق، كان يقرأ صحيفة لم أسمع باسمها من قبل، تختصُّ بعالم البحار، ويجلسُ قبالة الفاترينة المواجهة لجسر فكتوريا، ينتظر حدثاً ما. ثمّ التقيت به بعد عامٍ في بار صغير في بروكسل، أو بالأحرى حانة المهاجرين التي تقع قرب محطة قطارات الشمال- لا ستاسيون دو نورد- حيث يقع حي العاهرات البلغاريات والرومانيات في سكاربيك، وكنت فوجئت بعامل البار التركي، بصديريته الخضراء، وشاربيه الكبيرين، وقد وضع له زجاجة النبيذ على الطاولة وأطلق عليه لقب: البحار القديم.

اللقب ذاته الذي كنت أطلقته عليه أول مرة، عندما رأيته في دمشق، بعد يومين من اجتياح العراق.

بعد عام من ذلك اليوم، كنت عرفت من أشخاص عديدين، أنه روى لرواد البار قصة حياته أكثر من مرة، وحكى لهم أكثر من مرة كيف كان بحاراً في ميناء البصرة في السبعينيات. وعرفت ممن كانوا يرتادون مقهى المهاجرين، أنه روى لهم كل شيء عن تاريخ عائلته:

بنات أخ، أبناء عم، أخوات، أجداد، أسلاف...قال لهم أن بعضهم يعيش الآن على شاطئ معزول من ضواحي كاليفورنيا في أميركا، وبعضهم مهاجرون

في أستراليا، وبعضهم في ستوكهولم، أما الباقون فهم في البصرة، ميناء هذا البلد المنهك، حيث يمكن توقع حدوث الأسوأ دائماً.

*

بعد رحيله إلى لندن، اعتاد الجلوس في حانة إنجليزية رخيصة في حي سوهو، يعرفها جميع المهاجرين تقريباً، وما أن يدخل، حتى يصرخ:

كأس بيرة غنيس إلى البحار القديم...

-كم سعر الكأس...

-ثلاثة باونات...

يفتح محفظته بيدين صلبيتين عليها وشم البحار القديم، يخرج الباوندات الثلاث كما لو كان قد رتبهن مع بعض، ليضعها أمام النادل الأيرلندي وهو يبتسم.

*

اعتاد البحار القديم أن يتحدث لزبائن الحانة عن قصة حبه في العام1977، حين كان بحاراً على ظهر الباخرة تموز التي تمخر عباب الخليج والتي تصل إلى أفريقيا، تحدث عن ملابسه البيض المخططة بالأزرق والتي يرتديها البحارة العراقيون عادة، عن شبابه اليافع، وهيام النساء الزنجيات به حينما وصل أول مرة إلى خليج كوبا.

وقف أمام النادل مرة وتحدث عن جنوح الباخرة في بومباي، وكيف رأى الرمل المتألق في شمس الصباح على الخليج الهندي، وقارن المناخ هناك مع الأمطار في بانكوك، حيث كان حارس الميناء العجوز يرتدي معطفه المطري، ويشير بالمصباح إلى السفن.

لم يكن ينسى أبداً ميناء طنجة، حين جلس مرة على المرسى، حيث ١الت سخونة الليل تصعد قادمةً من الأعماق، فتزيد من صلابة أجساد النساء على الساحل، وترسخ الشهوات على الأفخاذ.

كان يجلس كل يوم في الحانة متسلحاً بالخريطة والقمباص، في ساعة الغداء على الدوام، حيث تضج البارات الإنجليزية في سوهو بالموظفين الذين يرتدون البدلات والأربطة، يخرج حنا لهم الخريطة ويفرشها على الطاولة، يؤشر بيده على بقعة سوداء وسط محيط أزرق...يقول لهم انظروا هنا...هذه آسيا...يشرب من كأس البيرة الكبير حتى تدمع عيناه، ثم يمسح شاربيه بيده... هناك كنت في يوم ما، في هذا المكان بالضبط حينما هبت العاصفة...

هل ترون يقول لهم؟

من هنا تهب الرياح الموسمية، إنها رياح الشرق المصحوبة بالخطر، حيث يغلق اليابانيون على أنفسهم داخل بيوتهم، محتمين بالسقوف المصنوعة من ورق الأشجار، ويتدثرون بفرشهم المؤرجحة المنسوجة من سعف السيزال.

يضحك الموظفون الإنجليز وهم يضعون الصحون أمامهم...

*

من سنوات بعيدة، وما زال البحار القديم يؤشر على بقعة سوداء على الخريطة، ويقول أن التايلنديين لا ينتظرون أحداً، لأنهم لا ينامون، فبلادهم هي مكان التربص الدائم، ونساؤهم كن يرصدنه في الليل كما لو أنه وعل فوق هضبة...

يقول حنا للنساء الإنجليزيات والمهاجرات، إنه ضاجع الآسيويات في حياته مرات عديدة، ضاجعهن وهن يصغين إلى الهمهمات الهاربة التي تحملها الرياح، وإلى البرد الذي يصعد من رمال الساحل، وإلى الرغبات الكامنة في باطن البحر، بينما خفافيشه تطير في الظلمة، صائحة في تيارات الهواء.

*

ها هو الآن أمامي رجل يشعر بالهزيمة والكآبة، بحار كان قد عرف البصرة وأضواءها في الليلة السابقة للحرب مع إيران، في العام 1980. وكان يحلم بمدينة عظيمة، وبفصل الشتاء فيها، وتساقط المطر على بيوتها الصغيرة.

لقدسافر كثيراً في البحر، ومرّ بمدن كثيرة، مدن ساحلية بيوتها ذات مداخن وسقوف قرميد مائلة. لكنه الآن مصاب بأرق دائم، ومجنون بمحيط كبير ومظلم، بعد أن فقد شقيقه جوزيف، النائب عريف في الحرب مع إيران، ومات والده ياقو الذي كان يربي الطيور في الخمسة ميل، ورحلت حبيبته الفتاة الغامضة والتي كانت تعشق الأفلام المصرية إلى مكان مجهول، ثم انتحر صديقه، ذلك الشاب، الذي لا يكف عن الحديث عن ولعه بالهروب من العراق إلى أوربا، والذي كان يستحم كل ليلة في نهر دجلة، غير أنه اختفى في الموج ذات يوم، من دون أن يعرف أحد إن كان اختفاؤه هروباًأو انتحاراً...

*

بعد سنوات التقيت به في موقف الباص؛ كان سكراناً تماماً، شعره أبيض ولحيته طويلة، ملابسه رثة، كان يعيش خيبة أمل كبرى بعد الحرب، ولا يجد

الاً للتغيير إلا في استذكار أحداث كثيرة، منها وزراء العصر الملكي، وثور
الكريم قاسم أواخر الخمسينيات، والعصر الذهبي للفرقة السمفونية
راقية، والقمع الذي عانى منه الشيوعيون في سنوات السبعينيات،
المنشقون التروتسكيون الذين عارضوا التأثير السوفياتي... وقبل أن أصعد
الباص أخذ مني سيجارة، أشعلها بيدين مرتجفتين، ورحل...

*

قبل أيام رأيته مرة أخرى في لندن، بحار عجوز يشبه عجوز همنغواي، يجلس في حانة إنجليزية في إجوارد رود، تقع على مقربة من البازار العربي الذي يفتتح يوم الجمعة، كان مسحوراً بمشاهدة تساقط المطر على زجاج الحانة، وبسماع صوت بيبي كنج الذي ينبعث من زاوية معتمة، ويتلذذ بطعم البيرة الأيرلندية القوية التي دفع للنادل مقابلها ثلاثة باوندات من محفظته...ثم جلس عند النافذة وحده.

إنه بحار قديم، ترك خلفه بلداً متهالكاً من الحرب، من دون أن يكف عن الحلم بالعودة مرة أخرى إلى خليج البصرة...

لندن شارع بلومزبيري

2012

حين سكرت مع البروفسور جيم في الحانة الإيرلندية

أنا البروفسور جيم Jim، في الحقيقة اسمي جاسم، والدي حمادي الحسن من مدينة الحلّة، جنوب بغداد، وأمّي صبريّة السلمان من مدينةٍ صغيرةٍ اسمها الحمزة. وقد ولدتُ في مدينة الديوانية حينَ عمل والدي شرطيّاً هناك. والداي العزيزان كلاهما أمّيان، توفيَّ والدي قبلَ عامين أمّا أمّي فما زالتْ على قيد الحياة، وهي تعيشُ مع أخواني وأخواتي السبعة في مدينة الحلّة، الواقعة على مدينة بابل التاريخيّة. قبل سفري ودراستي في جامعة أوكسفورد عملت في مهنٍ متعدّدة:

بائع سجائر بالمفرّق، صبي مقهى، بائع ماء، بائع صحف، بائع بسطية لمواد طبيّة أغلبها مقويّات جنسيّة، بنجرجي، عامل في مخبز، وأعمال كثيرة أخرى.

حصلتُ في العام 1979 على بعثةٍ حكوميّةٍ إلى بريطانيا، وقد درستُ أدب الرحلات في جامعة أوكسفورد، بعد أن اشترطوا أن أدخل حزب البعث، وقد فعلت. كانت دراستي أهم من قصة الإيمان بأحزاب سياسية أو نظريات أو إيديولوجيات، هكذا عشت هناك طالباً أولاً على نفقة الحكومة العراقية، ثم أستاذاً جامعياً مستقلاً، بعد أن حصلت على المواطنية البريطانية في العام 1990.

تزوجت من أديثبلاكويل، وهي أستاذة أيضاً في الأدب الإنكليزي من مقاطعة يورك شاير في الشمال. وغيرت اسمي إلى جيم Jim، فأصبحت جيم هاسن -وهاسنHasonهو تصحيف للقبي الحسن، بعد رفع الألف

واللام وفتح الحاء وتحويلها إلى هاء فتصبح هاسن- بعد ذلك سميت ابني إدوارد، أو إدوارد هاسن، وابنتي إلزابيث، أو إلزابيث هاسن، وتحولت زوجتي من أديثبلاكويل، من عائلة بلاكويل العريقة، إلى عائلة هاسن -الحسن، واحدة من أكبر عائلات الجنوب في العراق.

لقد كتبت الكثير من المقالات والدراسات في مجلات راقية منها:مجلة الدراسات الشرقية، الحوليات، مجلة الدراسات الآسيوية، مجلة آسيا وأفريقيا، مجلة العالم العربي والإسلامي في الغرب...وشاركت في العديد من المؤتمرات والندوات.كما استضافتني محطات تلفزيونية عديدة كخبير في شؤون العالم العربي والإسلامي، والشرق الأوسط على وجه التحديد...وهذا يناقض تماماً ما قاله عني البروفسور الإنجليزي أي. جونسون من أنني لست سوى كاتب عالمثالثي...مغرور ومغمور

هل قرأت هذا؟ لقد كتب هذا الحمار عني في البوكسروفيو، خراء حقيقياً، خراء أكاديمياً، بمناسبة صدور كتابي)الاستعمار وأدب الرحلات(. وهو كتاب مرموق ومعروف في الوسط الأكاديمي اليوم، ذلك أني ربطت بين الرحالة الغربيين والمشروع الاستعماري، ألم تسمع بهذا؟ الكل سمع به والكل أعجبه كلامي، ولكنه لم يرق لهذا الحمار جونسون، هذا أمر لا شك فيه، كما أن العنصرية هنا معروفة، فما أن تكون من الشرق حتى يهجم عليك الجميع...حتى في الوسط الأكاديمي هناك تراتبية، وعليك أن تعرف نفسك من خلالها، لا تضع نفسك في غير محلك، الهندي يحتقرك متشبهاً بالبريطاني، والبولوني يتنازع السيادة مع البلانغديشي، والباكستاني مع الهسباني والكل مسحوق من البريطاني بطبيعة الأمر...

هذا الحمار جونسون يريد أن ينكر جهدي، لأني كتبت عن حياة الرحالة، عن أسماء الأماكن التي مروا بها في رحلاتهم، عن زمن رحلاتهم ومسارها.

[illegible] ثبت عني صحيفة الديلي تلغراف بأني قمت بتحليل نصوص الرحالة [illegible]ل رائع وقمت بتفكيك خطابها. وقالت إني أول من كشف الطرائق التي [illegible]ها الأوروبيّون في رؤيتهم وتصويرهم للأجناس «الأخرى» في الشرق. [illegible]م يكرهونني لأنني اعتبرت كتاباتِ الرحالة الأوروبيين حول الشّرق الأوسط بأنها ليست «مصدراً تاريخيّاً بريئاً»، واتهمتهم بأنهم «إمبرياليون» [illegible]عنصريون». أنت تعرف أنا الآن واحد من أهم كتاب العالم، وأول عربي [illegible]ار بالنّظريّة الاستعمارية، هل سمعت بها؟ لقد ظهرت هذه النظرية هنا في أوربا في التّسعينيّات... غير أن هذا لم يرق للعديدين ولا سيما ذلك الذي يقف هناك عند الطاولة هل رأيته...ذلك الأبيض الواقف عند المائدة الطويلة إلى جانب البار، يمسك بيده كأس البيرة، هذا الذي يدعي أنه أستاذ الفلسفة الشرقية في المعهد.

أما أقذر واحدة في هذا الحفل الأكاديمي هي مسز كرين الضخمة التي تدلت نظارتها فوق صدرها، هل تعرف أنها تتبول في اليوم خمسين مرة. أنا حسبت هذا مرة، وهي تذهب وتعود من التواليت في يدها ورق الكلينكس.

أما ذاك الأحمق العنصري جونسون، فهو الذي يقف إلى جانب المرأة البيضاء القصيرة القامة...ذلك الخمسيني الذي امتلأ وجهه بالغضون وهو يفتح زجاجة الواين، لقد جاءنا قبل عامين معاراً من معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ثم بقي هنا، أما تخصصه كما يقول فهو في التاريخين التركي والفارسي، بينما مؤخرتي تعرف بالتاريخ أكثر منه...

ليس هنا في هذا البار من هو أحسن مني، لقد حصلت على أعلى الدرجات العلمية، وعملت عشرين عاماً دون توقف، هل لحظت تقوساً خفيفاً أعلى ظهري، لقد عزاه الطبيب إلى طول عكوفي على المخطوطات

القديمة، هل تصدق؟

أما تلك الأميركية السوداء، ليست الطويلة، فهذه تحبنا، أقصد
العرب...لا، لا، تلك البدينة، القصيرة القامة، التي ترتدي بزة بلون الصا
اسمها صوفي سكوت.

هل رأيتها...نعم تلك! على الرغم من أنها تقول عن نفسها يسارية وأنها
تصفف شعرها المجعد المنفوش على طريقة أنجيلا ديفيز، إلا أنها ما زال
تربط بين العرب والإرهاب، والكل يعرف أن الذي يطؤها هو يهودي أميركي
خمسيني، له وجه صبي، تعلوه نصف نظارة فوق عينين قبيحتين.

أما ذلك الذي يحضر أطباقاً ورقية، وأدوات طعام، ويتجه إلى المائدة.
ذلك الذي يسد الطريق كأنه مسز كرين، ويقف خلفها فهو أكثر المحتالين
الذي رأيتهم في حياتي دهاء، جاء إلى هذا المعهد قبل عامين، وسرعان ما
كشف عن نفسه، إنه مخاتل عجوز، يحاول كسب ود الخليجيين عن طريق
تصنعه في التودد لهم، وهم يقدمون له المال بسخاء ظناً منهم أنه يروج
لهم، بينما هو يسخر منهم...أغبياء.أما تلك المرأة البدينة التي تسد الطريق
فهي زوجته تعمل في مكتبة المعهد، وتدعي أنها تفهم بكل شيء، مثله
تماماً، أما ذلك الذي يحاول فتح زجاجة النبيذ فهو...لا أتذكر من هو؟ لا
ليس النادل، ربما الذي يفتح الزجاجة هو النادل...لا تؤاخذني فالشراب بدأ
يؤثر على عيني...

أقصد ذاك الذي يجلس قبالته...نعم هو الذي أقصده، رجل خمسيني
مكتئب الوجه يرتدي قميصاً حريرياً بخطوططولية زرقاء. كان قد عرفني
بنفسه على أنه أميركي، فسألته باهتمام: من أين من أميركا، قال إنه من
كاليفورنيا، ولكني بعد مدة عرفت أنه إيراني، وقد غير اسمه إلى دنيس...

... أنه أكاديمي في الواقع ولا علاقة له بالسياسة، ومع ذلك غير اسمه، ...ين أعلمته بأني عرفت عن أصله، تطرق للحديث إلى الصعوبة البالغة الي واجهها في تحقيقه للمخطوطات.

أما رئيس الجامعة، فهو هذا الذي يقف قبالة الرجل القصير القامة، ذلك الحيف الذي يرتدي بنطلوناًبحمالات ملونة، ويضع اليمكا اليهودية فوق رأسه. يقول عن نفسه أنه أستاذ متخصص في الدراسات الشرقية، مؤخرتي اعرف عن الشرق أكثر منه، بصراحة لا أحد يفهم في هذا المعهد سواي. صدقني الكل هنا حمير...

أما أستاذ الجغرافيا السياسية فيقول أنه ضد النظام الرأسمالي، ولا يشارك في الانتخابات، ولكنك تراه جالساً في الصف الأول، عندما يدعو المعهد أي سياسي يميني حتى لو من الدرجة الثانية، وحين يبدأ طرح الأسئلة فهو يتملقه أولاً ثم يطرح أسئلة غامضة، الشيطان لا يعرف هوية من طرحها إن كان يمينياً أو يسارياً، لأنه يريد أن يكون أمام الطلاب يسارياً، وعند السياسيين يمينياً...الموضة والمصلحة في كفٍّ واحد...هكذا درج الأكاديميون على فعل ذلك، أما تلك التي تراها تقف أمامه فهي زوجته، جاءت من شرق أوربا وهي قبيحة لا أعرف ماذا وجد بها ليتزوجها...

أما تلك التي تؤشر بيديها وهي تتحدث، فهي سحاقية... الكل يعرف ذلك، الكل يعرف أنها سحاقية، فأخذت تكتب عن النسوية.

قلت لها مرة: لو لم تكوني سحاقية هل ستكوني نسوية؟

فغضبت مني، وبدلاً من أن تجيبني بصراحة، أخذت تتحدث لي عن الأورغازم، وهي تأكل طبقاً من سلاطة البطاطس بالمايونيز، وقد هدأتها عندما طلبت منها أن أملأ لها طبقاًآخر.

*

بعد دقائق انتبه البروفسور جيم لي، حدّق بي طويلاً وقال:

- ولكن من أنت حتى أتكلم معك كل هذا الكلام...

-....

- أنت أحمق ومنافق أيضاً...من أين أنت؟ ما قصتك...من أرسلك لتتجسس عليّ... كي تستدرجني بالكلام، أنا أعرفك وأعرف أمثالك...

وقبل أن أضع الكأس على الطاولة، وأنهض من مكاني، وألتفت إلى الوراء، كان البروفسور جيم قد سدد نحوي لكمة وفي تلك اللحظة سقط البروفسور جيم أمام الطاولة متعتعاً من السكر... كان جميع البروفسورات المدعوين ينظرون إلى ما يحدث بدهشة.

بعض ما قاله البروفسور جيم هاسن في حفل الافتتاح

أيها السادة لي الشرف أن أقول لكم أن هذا المعهد، المعهد العالي للدراسات الآسيوية والشرقية، يضم خيرة علماء العالمين الشرقي والغربي، فهنا لدينا العالم أي. جيمسون وهو أحد أبرز المستشرقين والعاملين في حقل الدراسات العربية الإسلامية، وهنا المسزز كرين التي كتبت أهمّ الأطروحاتِ في الدِراساتِ ما بعد الاستعمارية. أما مدير المعهد فكلكم تعرفونه إنه الأستاذ دنيس الذي يعد عمله الأكاديمي مثيراً للجدلِ، وقد أصبح له تأثيرٌ مُتنامٍ على الحقول المعرفية المتصلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، كالنظرية الاستعمارية، ودِراسات ما بعد الاستعمارية، والنقد النسائي، والأنثروبولوجيا، والتاريخِ، وغيرها.

وللمعهد الشرف أن يضمّ خيرة العلماء، والكتاب، والمستشرقين، ممن أسهم إسهامات بارعة في التقارب بين الشرق والغرب، بين الإسلام وأوروبا.

أحببت أن أقول لكم أننا نعمل هنا كعائلة واحدة، وهذا مثال حي وحقيقي عن هذا التلاقي العلمي الكبير، والأساس الأخلاقي الذي يجب أن يسود في العالم...

لندن 2012

أقسم لكم أن السيد مودي في لندن

أقسم لكم بأن الشيخ حفيظ الله قد رأى السيد مودي في لندن. والسيد مودي هو اسم لمحمد العربي عند الانجليز. ربما لا أحد منكم سيصدقني، فهذه ليست مزحة مقتبسة من كتاب الرجال والحمير The Men and donkeys الذي أصدره السيد رستن Ristun في لندن في العام 1929! لا أبداً! إن مودي هو الاسم الذي يفتتن به أهل لندن ويخشونه لو نطقته لهم بالعربية، يفتنون به لأنه علامة على أن لغتهم العظيمة في أفواه المسلمين هي إنجليزية أيضاً. وهذا نوع خاص من المباهاة أيضاً، نوع من المباهاة قادم دون شك من عصر الإمبراطورية، العصر الذي دشن هذه المشاعر المعبّر عنها في اللغة وبأشياء أخرى أيضاً.

ربما لا تصدقوني، ذلك أن السيد مودي قد ولد بعد ولادة السيد المسيح بقرون عديدة، ولكن يمكنه أن يظهر في أي زمان وفي أي مكان يختاره، لأن رسالته ليست موجهة ضد الفكر، مع أن الكثير من الباكي -هكذا يطلق علينا أهل لندن نحن الباكستانيين- يؤمنون بها، أنها ليست تهكّماً من أحد، ولا عداء لأحد، إنما هي نوع من اقتناء المعرفة لغرض تمجيد الله، لا لتمجيد السيد مودي، ولا لتمجيد ذات مالكها، أبداً، أبداً، مع أن واحداً من شعائرها هي نقلها إلى الآخرين.

لقد كان لكلام السيد مودي تأثيراً قوياً على البشرية جميعها، لقد كان خلاقاً في تناسقه ومبتكراً للكلمات، كما أنه كان حكيماً في تفسيره لمأزق

الإنسان وعذابه. ولقد كنت ممتثلاً لإرادة تعلم أفكاره من والديّ ومن أقاربي أيضاً، ولكني بمرور الزمن، بدأت أنهل هذه المعرفة من محلات البقالة ومن السوق، أما محلات الأثاث التي يملكها العرب في شارع ليفربول فهي الأماكن التي يبذل فيها جهد مقصود من أجل رفع الكلام إلى مرتبة سحر عظيم، ولذلك أصبحت هذه الأماكن في لندن مكاناً جيداً للوعّاظ، والدعاة أيضاً، لا سيما هؤلاء الرجال الذين استقرت كلماتهم في ذهني بمرور السنين. ومنهم السيد حفيظ الله.

لقد فهمت من السيد حفيظ الله أهمية الحكمة والموعظة الموجودة في حياة السيد مودي، وفي سيرته، ولا يخفى على أحد في لندن، ذلك أنه كان عبقرياً مذ كان طفلاً، وها أنا اليوم أسمع السيد حفيظ الله وهو يتحدث عن لقائه به، فقد رآه وهو يجلس في مكان قريب من شمال لندن، ونقل عنه أنه قال للناس:

قد تفنى الأشياء وقد تخلق، لكن عليك أن تعرف أن المسألة ليست في الرداء إنما في طريقة ارتداء الرداء...

هل هناك ما هو أعظم وأجل من هذا الكلام؟

نعم، أقول هذا الكلام كل مرة أصادف فيها أحداً منكم، في الشارع، في الجامع، في الباص، في محلات الباكي، ربما لا أحد منكم يصدق الشيخ حفيظ الله، فأنتم تكذبونه على الرغم من وقاره، وجلالة كلماته، وهيبة شكله فهو يطيل ذقنه ويحلق شاربه على طريقة مودي، ويلبس دشداشة قصيرة، ونعالاً جلدياً محمولاً على الأصبع، بينما انسياب الكلمات من فمه، وطريق أدائه في قولها، ما تنطوي عليه هذه الكلمات من معان خفيّة، هو الذي جعلني منسحراً به على الدوام.

إنه شكل الكلام حتى وإن سقط فحوى الكلام. ولذا حين سمعته وجدت ا‌لماته جديرة بالحفظ في الذاكرة لا لمعناها فقط ولكن للطريقة التي ‌يلت فيها.

كان إيماني متمثلاً في الكلمة المنطوقة، وهذا هو الذي جذبني لهذا الأمر، وهذا الأداء هو واحدة من الإسهامات الباقية الأثر في بلادنا. إنها حصيلة ما قدمه الباكي بجهدهم والبدو بمالهم لهذه البلاد، بلاد البيض، أمثال الواعظ حفيظ الله في جامع لندن الكبير، أو الداعية سيف الإسلام في مدينة برادفورد، التي يطلق عليها البيض برادستان لكثرة الباكستانيين الذين يقطنونها، وهي الخاصية الرفيعة فيما قالوه عن التباين بين تفاخر إنكلترا بنفسها وبمثلها العليا وبين معاملتها لأهلها. ولن أنسى قط خطبة الواعظ الشيخ تقي الله الملتهبة في الجامع إن لم تقبل إنجلترا بموعظته فهو يشك بمصداقية إنجلترا.

*

قال الشيخ حفيظ الله صادقاً:

إن الفرق بين النبي والواعظ هو أن الأول يقول أشياء حكيمة، والثاني يقول أشياء بأسلوب حكيم. ولا شك أننا كلنا نقع في المصنف الثاني، ذلك أن النبي يبتكر سلسلة من الشخصيات جديرة بأية رواية. منذ بدأت مشاهدة الحكيم في عروضه الأولى في موعظة جامع سوهو، وسماع أشرطة تسجيلاته القديمة والذهاب إلى جمعية برادفورد في يورك شاير لمشاهدة أدائه الحي، أكبرت طريقته في عدم اللجوء إلى الإثارة أو إلى المناصرة في مسألة تعامله مع المسلمين الذين يملئون عالمه الروحي.

وإن ملاحظته في أجزاء معينة من لندن، وكلامه بالإنكليزية، وحركات

الجسم المصاحبة له، تضعه على رأس قائمة المتحدثين من الدرجة الأولى
مثلاً، تفحصوا خطبة الجمعة السابقة ولهجته في جامع سوهو:

أتعلمون أيها الأخوان أني التقيت السيد مودي في لندن مرة واحدة
فقط...كان ذلك في العام 1980 أو العام 1981، لا أتذكر بالضبط ولكن كان
ذلك أول هجرتي إلى لندن من الباكستان.

آه لن أنسى هذا اللقاء أبداً، أبداً، لقد كنت ذلك الوقت جالساً على
الأرض، لا أظنكم سمعتموني.

قلت لكم، لقد كنت جالساً على الأرض، لا أعرف...

وربما كنت ماشياً في الشارع أيضاً. ولكني لم أكن راكضاً. كنت ماشيا.
كنت ذلك الوقت ألتهم ساندويشاً من الفيش والجبس اشتريتها من محل
شهير يملكه مصري في ساحة البيكاديللي، مصري مسلم لا أعرف ماذا حل
به...

وقبل أن تصل اللقمة الأخيرة إلى معدتي سمعت صوت السيد مودي
يناديني...كان ذلك من مكان مظلم..

قال لي أن عليّ أن أصدع بالحق وأبشر برسالة الوعاظ...

كان الصوت يناديني، وعرفت أنه صوت السيد مودي، فمثل صوته لا
يصدر إلا من هذا المكان المظلم، ولا يصدر إلا بهذا الكلام الواضح...

على كلٍّ، يا إخواني، لم أغامر وأجيبه...بيني وبينكم قد ارتعبت منه...ثم
شككت، فقد لا يكون هذا الصوت صوت السيد مودي، إنما هو صوت مهاجر
عربي سرق لفة ساندويش من هذا المصري المسلم... الله وحده يعلم ما
خبر هؤلاء العرب...أما السيد مودي فهو لا يتكلم اللغة الأوردية أبداً...وأما

!!! فربما لم أكن ماشياً ولا جالساً...لأني ببساطة كنت سائق تاكسي أعمل
ال النهار في شوارع لندن!

لندن

2012

موت الجندي الخيالي

لم يتأكد حتى الآن من حقيقة الجندي الخيالي الذي تم القبض عليه في مقهى قبل يومين في المساء. الحقائق التي يتحدث عنها: حياته، قصة مقتله، الأحداث التي مر بها جعلت مأساته محتملة الوقوع طالما أن الوقائع التاريخية تؤكد ذلك. المعلومة الوحيدة التي توفرت، وقد تناقلها الناس بسرعة كبيرة، جاءت بها صحيفة الكوت أوبزيرفر وهي أن شرطة المدينة المحلية ألقت القبض قبل يومين على رجل غريب، له ملامح غاضبة، ويستخدم لكنة كانت تستخدم قبل مئة عام. ادعى هذا الشخص أنه كان جندياً في حرب الأميركان، ولد في العام 1960 في مدينة الناصرية، ترقى الى رتبة عريف، ثم قتل في مدينة الكوت في العام 2003. المحققون يدققون في أقواله وادعاءاته الخيالية. غير أن الرجل يصر على أن ما يقوله هو حقيقة، ولا يكف عن إعادة سرد قصته لهم:

سأقول لكم كل شيء إن استطعت، دون أن أسقط من السماء إلى الأرض، وأحدث صوتاً مدوياً....طراب... وأموت مرة أخرى...أموت ميتة لا أعرف شكلها هذه المرة ولا طبيعتها.

الشيء المهم هو أنني اليوم شخص آخر...لست الجندي الذي كنته قبل مئة عام. لم أعد خائفاً كما كنت في السابق، بل سأقول الحقيقة بإصرار

حتى لو دفعت ثمن ذلك غالياً!

يقولون إن الحقيقة لازمن لها، ولكن هذه القصة لها زمنها، وهو زمن الحقيقة. يا له من شيء رائع إذن أن أتكلم لكم عن الحقيقة، وأن أدلي بتفاصيلها التي تصرف صريفاً كصريف الحياة.

إذن ليكن الثمن ما يكن. لاسيما لو عرفتم بأنني ميت منذ زمن بعيد ولست حياً. فأنا في الواقع شهيد. نعم أنا شهيد، آخر جندي في حرب الأمريكان. وإذا أردتم الدقة فأنا في الحقيقة: شهيد الوطن. أما كيف كان ذاك، فببساطة: اخترقت جبيني رصاصة قناص أمريكي أسود، في العام 2003، أي قبل حوالي مئة عام من الآن.

*

اسمي سبهان، ولدت في العام 1960 في الناصرية، جندي عادي من جنود الجيش العراقي. جيش العراق البطل كما يسميه الإعلام ذلك الوقت. ولا شيء آخر يمكنني أن أضيفه لطبيعة مهنتي، أو للعمليات العسكرية التي قمت بها. ذلك لأنني ببساطة شاركت في كل العمليات البطولية التي قام بها هذا الجيش منذ التحقت به، حتى استشهادي في مدينة الكوت. أما شهادتي التي سأتلوها عليكم، فهي شهادة صادقة. شهادة حقيقية لا تزييف فيها. واقعية وليست خيالية. فالحدث الذي رأيته لا يمكنني أن أخفيه. لأن هنالك ما يكفي من الخيال والتفاهات في العالم الذي عشت فيه قبل مئة عام، ولا رغبة لي أن أضيف إليها شيئاً آخر.

*

انضممت إلى الجيش العراقي حينما كنت في الثامنة عشر من عمري. كنت يافعاً ذلك الوقت. طويلاً مثل سلم. لي شارب خفيف مثل ريش مؤخرة

العصفور. وأنف بارز مثل قضيب. عليه بثور قليلة مثل خراء يابس ...
على الطريق. خدمت اثنين وعشرين عاماً وستة أشهر. من العام 1980 في الحرب العراقية الإيرانية حتى استشهادي في العام 2003 في معركة صغيرة مع الجيش الأمريكي. معركة ثانوية جداً ولم تكن رئيسية أبداً. لأن الحرب انتهت في الواقع قبل يومين من تاريخ استشهادي. وكنا ننوي التسليم أيضاً...بل لم نكن ننوي أن نقاتل أصلاً...كنا عند التلة الخرافية عندما فاجأتنا دوريتهم، وحين رأيناهم ارتبكنا...

-هولت... سمعنا الصوت...

قلنا لهم:

- فريندز...

لكن لم يصدقنا أحد...أنا من جهتي ابتسمت لهم. استدرت قليلاً لأتحسس جيبي... جيبي الذي وضعت فيه وردة. لكن القناص الأميركي الذي كان جالساً في المؤخرة رفع بندقيته من نوع M24 وأطلق رصاصته.... رصاصة واحدة فقط. طراب...جاءت في الجبين. رفع الأحمق بندقيته قبل أن أحييه أو أن أقدم له زهرة، كنت احتفظت بها في جيبي.

هكذا بكل بساطة رفع بندقيته المزيتة جيداًوالجديدة جداً وليست مثل أسلحتنا الخردة... وأطلق رصاصته. طراب...فسال الدم الساخن على جبيني.

في البداية لم أكن مصدقاً...هل أصابني؟ لم أكن متأكداً.شعرت بشيء ساخن سال على وجهي. ابتسامة صغيرة على وجه أسود أمامي. بندقيته هبطت عن عينه اليمنى ليرى أنه سدد جيداً وأجاد التصويب. ابتسامة

عريضة اختتم بها المشهد. هذا كل ما في الأمر...

-ابن القحبة كان ماهراً... آخر عبارة صدرت عني...وهي عبارة إ
في الحقيقة بالجيش الأميركي.

*

بدأت حياتي جندياً عادياً في فوج المغاوير الثالث، الفوج الذي أ
عشرات المرات في حروب صدام المتكررة. ومع إني لم استشهد في ال
حروبه (حروب صدام بطبيعة الأمر) لكني جرحت سبع مرات، ثم ترقي
لأصل إلى رتبة عريف. ثم حصلت على نوط شجاعة في حرب الكويت،
ثم التحقت بفوج الإنزال الهجومي في حفر الباطن بعد أن أعيد تشكيله،
لخسارته أغلب جنوده في المعركة. لم أمت في كل المعارك السابقة، ولكن
رصاصة أصابت طرف أذني أثناء الواجب في معركة شرق البصرة فسقطت
في جيبي. ومن حسن حظي كان الجندي الإيراني خائباً في التصويب لأنه
سدد على جبيني في واقع الأمر فأخطئه وبدلاً من هذا أصاب أذني، وأطاح
بها. هكذا شعرت بالدم وقد سال على عنقي...وقد سأل الطبيب عن أذني
ليخيطها في مكانها ولكنه لم يجدها.ولكن بعد أيام كنت تحسست شيئاً
ناعماً وبارداً في جيبي فكانت أذني...صرخت فرحاً: وجدتها...إلا أن الطبيب
قال:

- لا نفع فيها...بعد أيام من سقوطها أصبحت خردة.إرميها أو ادفنها.
افعل بها ما تشاء لأنها لن تعود...

-كيف لن تعود يا سيدي الطبيب؟

-ابني قابل هي تاير...هي إذن وره يومين إذا ما ترجع لمكانها تموت
الشرايين والأوردة...خلص.يالله اللي وراه...

وهكذا دفنتها في ساحة المعركة... بينما كل رفاقي كانوا [illegible] بعيون جاحظة كعيون البق يحاولون رؤية رأسي بإذن واحدة.

*

إن أكون بأذن واحدة، ليس الأمر كريهاً ولا قبيحاً بالنسبة لي ولا بالنسبة لزوجتي! ولكن المشكلة مع الضباط، الذين لم يعودوا ينادونني باسمي، بل كانوا ينادونني: عريف تك أذن! ومن ثم كل الوحدة صارت تناديني بهذا الاسم! كانوا يسخرون مني هؤلاء الجيفة مع أنهم يعلمون أنها طاحت في سبيل الوطن وليس في سبيل مؤخراتهم.ليست أذني وحدها من خسائري... بل هنالك أشياء أخرى يمكنني الإبلاغ عنها:

شظية اخترقت كتفي، وأخرى مؤخرتي، وثالثة استقرت في ذراعي، ومع ذلك يمكنني أن أغرق في الضحك، وأتقلب على بطني لأقل نكتة تحكى في الموضع أو أثناء القصف أو الهجوم.

الحرب هي التي علمتني الضحك والفكاهة، مع أن ثلاثة من أضلاعي ليست سليمة، وليس هنالك من مصران في بطني يعمل بصورة منتظمة، وأكثر أسناني تداعت بينما كنا ننشغل في القصف، وتزييت الأسلحة، والاستاعد والاستارح، وإلى اليمين در...وغير ذلك.

كل هذا وأنا أقول أن خبراتي القتالية ممتازة هذا ما تقوله كنيتي العسكرية، ولست مثل أولئك الجنود الذين لا يساوون خراء الخرفان. إنها مهمتي، وعملي، وقد أحببتها طائعاً ومرغماً. وكانت وحدتي التالية هي الحرس الجمهوري والتي كانوا يسمونها حرس صدام، والفرقة الذهبية، ورجال الموت، وأسود الصحراء...وغير ذلك من النعوت التي تجعل العدو يعملها في بنطلونه لو سمع بنا ونحن نتقدم إليه.

*

لا أفكر بالقتل في الحرب على أنه جريمة أبداً. إنه وظيفة، وظيفة ذات أجر. وظيفة محترمة مثل أية وظيفة أخرى في الحكومة. ليست عظيمة، ولكنها من الشرف الوطني حتماً. لست قاتلاً مأجوراً، ولا لصاً، ولا ساطياً. أنا جندي. عريف في الواقع. منتظم في الجيش الوطني. مثلي مثل الآخرين. ممنوع أن نجادل في أمر مهمتنا، ممنوع أن نسأل، أو نتراجع، أو نهرب، أو نمانع، أو نتخاذل.نحن هنا تحت الأوامر: أوامر القيادة العسكرية، أوامر ضباط الفصائل، أوامر الحزب... هذا ما لا جدال فيه مطلقاً، ننتظم في الوحدات، نقاتل، نهاجم، نحتل، ندافع، نحصل على الأوسمة، ونفتخر بأننا من الجيش الوطني. هذا كل ما في الأمر. ولا أظن أن الجندي الأسود الذي أطلق عليّ رصاصة، وأصابني في جبيني، وابتسم، يختلف عني في هذه المهمة...فهو أيضاً ممنوع أن يسأل، أو يتراجع، أو يهرب، أو يمانع، أو يتخاذل. هو مثلي عليه أن ينتظم في الوحدات العسكرية. يتدرب، يدافع، يحتل، يهاجم، يطلق الرصاص بمهارة على العدو. هذا ما فعله تماماً معيحين أصابني، أزاح الناظور عن عينيه قليلاً، ابتسم وهو ينظر جبيني الذي أصبح مثل ذروق الطير مشتتاً في الهواء. ابتسم حين رأى أنه أصاب الهدف بمهارة...لما أدرك أنه زرع رصاصته في الجبين...قلت ابن القحبة... بعد أن عرفت بأنه دسها في الوسط تماماً، وابن القحبة هنا ليست شتيمة مطلقاً، إنما هي إعجاب بمهارته. إعجاب به لأنه كان بارعاً وليس خيخة كما كان الجندي الإيراني الذي بدلاً من أن يصيب جبيني أصاب أذني وأطاح بها...إنه أميركي حسن التدريب، أسود اللون لكنه قناص ماهر...قناص تخرج من أحسن مراكز الدفاع في أميركا...

*

ومع أن الإعلام الوطني لم يكن يتحدث عن الحرب في الأيام الأولى إلا كنا نَعلم أن الأمريكان قادمون. كنا نتهيأ لمعركة غامضة. لم نجرؤ أن نتساءل أو نتحدث عنها. لم يبلغونا بشيء. لم يقولوا لنا أن الأمريكان قادمون. ولكننا كنا نعرف أنهم قادمون. الجميع كان يعرف: أنا والضابط، ونائب الضابط، ومخابر الفصيل، والرامي، وسائق البطرية، وخباز الوحدة، بل كل جنود الكتيبة. وحتى الكلب الذي يلق الماء في سقاية الجنود يعلم أن الأمريكان قادمون...غير أنه أمر محرم علينا أن نذيعه علانية. ومع أننا لا نتحدث فيه غير أننا كنا نهمس فيه سراً. نتداوله بطريقة ما، نقول أشياءً غامضةً يمكن لكل واحد أن يفسرها على هواه. ولكن ما هو متاح لنا تلك الأيام أن نتحدث به، هي الأوامر: أوامر القيادة العسكرية...أوامر الوحدة، مناسبات الحزب وميلاد القائد! أن نتحدث عن قدراتنا العسكرية التي يمكنها أن تهدم كل أساطيل الإمبريالية، حتى لو كانت أسلحتنا خردة وأسلحتهم ديلوكس...

كان مسئول الدعاية، وهو ضابط ريفي، بالكاد يعرف كيف يرتدي بنطلونه، قال:

- بقوة الإيمان بالأمة والقائد يمكننا أن ننتصر على أكبر جيش في العالم...

هذا يعني بالنسبة لهذا الضابط صاحب البنطلون المنفوخ مثل برشوت: أننا بأسلحتنا الخردة، طائراتنا الخردة، دباباتنا الخردة، بنادقنا الخردة، مدافعنا الخردة أن نهزم أكبر جيش في العالم...

-هكذا نريدكم أن تتحدثوا...قال المسئول الحزبي الذي ينظم الدعاية ويحارب الدعايات المضادة.

ومع زحف الأساطيل عبر البحار، علينا أن نغض البصر، أن لا نقر بوجود

ما هو موجود. ببساطة لأننا جنود منضبطون: جنود القائد، جنود الحرس الجمهوري، أبطال الدفاع الوطني...

وأن لا نصبح مثل سعيد، الجندي الغبي أبو نظارة سميكة...الذي حل الأمر بطريقته.قال:

- إن الجيش الأميركي قادم لا محالة! في حالة وجود هذا الجيش كله على الحدود لا بد أنه في نهاية المطاف سيهجم...وإلا ما فائدة وجوده هنا...كيف يمكن أن تكون كل حشود الطائرات والبوارج العسكرية التي عبرت المحيط للنزهة؟

قال له خباز الوحدة:

- ولكننا سننتصر عليه...أليس كذلك؟

خباز الوحدة، غليظ القلب، اعتاد أن يَلحق بضابط الدعاية هنا وهناك كما الكلب. كما أنه لا يَقبض لسانه عن طرح الأسئلة: "ما هذا؟ ما ذاك؟"

هز سعيد رأسه بامتعاض وقال:

-ربما...

هنالك شك في جوابه...ثم قال:

- ببساطة لأن التسليح مختلف...

هذا الجواب لم يعجب الخباز بوجهه المخزق بالجدري.فاستفهم قليلاً دون أن يلح.

-ماذا تقول لو التحمنا بهم، سوف تجاري دباباتنا ومصفحاتنا دباباتهم ومصفحاتهم، وبعد أن نتمكن من الترجل والالتحام عند خط المعركة، سوف

اقضي عليهم بالرصاص والقنابل اليدوية والحراب.

قال سعيد أبو نظارة سميكة:

-ببساطة لن يكون هناك أي التحام. إن مدى قنبلة الدبابة الأميركية أبعد من مدى قنبلة الدبابة العراقية... هذا يعني أنهم سيصطادوننا دون أن نلتحم بهم...

سعيد أبو نظارة سميكة، الغبي دون شك، لم يقل إنهم سيصطادوننا مثل الذبان...لم يقل إنهم سيرصعوننا على الأرض مثل خراء الكلاب، أبداً، كل ما في الأمر أن الخباز قال له:

-إننا سننتصر عليهم...أليس كذلك؟

هز سعيد رأسه بطريقة هازئة، هز رأسه وانسل إلى حجرة استراحة الفصيل.

هذا الأمر لم يعجب الخباز، فوشى به مباشرة إلى ضابط الدعاية الحزبية...لم يحل الصباح، إنما في المساء دخل إلى كابينته، وأخبره بما حدثه به سعيد الغبي أبو نظارة سميكة...

-ضابط الدعاية الحزبية لا يحب أصحاب النظارات...ليس هو وحده، إنما أغلب ضباط الفصيل أيضاً. فأصحاب النظارات السميكة جبناءلا يحبون الحرب، ولا يتفانون في الموت من أجلها. هكذا قال الخباز لسواق الفصيل...

بعد أيام علقوا سعيد أبو نظارة سميكة على الجدار المقابل لقاعة المنام، ثم أطلقوا عليه الرصاص...تطا تطا تطا...تشك تشك تشك...طارت نظارته إلى أعلى، وسقط على الأرض مضرجاً بدمه. لقد ثقبوا جسده بالرصاص، لأنه ببساطة كان يتداول الدعايات المضادة لتثبيط عزيمة الجنود...

الخباز أحد الرماة...مسح فمه بخرقة، وقف إلى يسار فصيل الإ
شفط أنفه وصوب جيداً، وقف إلى يسار المجموعة التي حملت ال
وأردت سعيد أبو نظارة وجعلته مثل خرقة مثقبة بالرصاص...

*

لا أكتمكم...لم يكن أحد منا يعتقد بأننا سنهزم الأمريكان، أو أ
سننتصر في أية معركة معهم. ولا حتى ضابط الدعايات الحزبية نفس
ولكن ممنوع أن نقول هذا الأمر، أو حتى نصفه. بل ممنوع أن نفكر
أيضاً...هذا ما حدث ببساطة شديدة في الأيام الأولى من الحرب... حت
حينما أخذ الأميركيون يحركون أساطيلهم وبوارجهم الحربية وأصبحوا عل
مقربة من حدودنا. كنا ننظر بوجوه بعضنا ببلاهة تامة. كان علينا أن نتصن
عدم المعرفة بما يحدث من حولنا. علينا الصمت. تصنع الغباء والبلاهة
والتطنيش. مع أن نظرات الأعين كانت تفضح الكثير مما لا يقال، إلا أن أحدا
لا يجرؤ أن يقول شيئاً واحداً، ولو عن طريق المزاح. بل إن تبادل هذا النوع
من الأخبار التي يعرفها الجميع ولا يقولها صراحة، كانت كافية لتجعلك أن
تسقط مثل خرقة مضرجة بالدم على الأرض، كانت كافية أن تجعل رأسك
يتفجر في الهواء مثل خراء العصفور...

لكن، فجأة أخذ الموقف يتغير...شيئاً فشيئاً بدأت الأوامر العسكرية
تتقدم. تقول الأشياء في البداية مراوغة، ولكنها أخذت تصبح أكثر صراحة.
فقد اتخذت استعداداتنا للحرب هيئة واضحة. أصبحت متواصلة وليست
متقطعة، ثم دخلت في مرحلة التنفيذ. وهكذا صرنا نتحدث في البداية
عن حرب محتملة قادمة، أو على الأبواب. ثم بعد ذلك أخذنا نتكلم عن
حرب أكيدة، بل وحرب حاسمة أيضاً. فمن غير المعقول أن استعداداتنا هنا
للتمرين المحض، أو أنها تسلية للضباط، أو أن القائد العام يعجبه ذلك!

شيئاً فشيئاً صرنا نتكلم عن حرب قريبة، حرب وليست كل حرب. حرب حاسمة دون شك. حرب علينا الاستعداد لها، والانتصار فيها. بل أخذ الضباط فيما بعد يشددون على أن الحرب ستحدث. وصرنا نردد وراءهم:

-نعم إنها ستحدث.

وحتى ضابط الدعاية الحزبية الذي ينكر كل شيء صار يقول: نعم إنها ستحدث!

مع أن المئات قد قتلوا بسبب جملة مثل هذه الجملة في الأيام القريبة الماضية! ولكن الجديد في الأمر، أننا لا نقول فقط: نعم إن الحرب ستحدث! ولكن علينا أن نعقبها بجملة أخرى، جملة أصبحت لازمة فيما بعد: وهي أننا سننتصر بعون الله وسوف نهزمهم!

الجملة الثانية أمر ضروري كي تمحو أوزار الجملة الأولى أو تخففها. ولكن ليكن في القلب ما في القلب، ذلك أن لا أحد يمكنه أن يقول أن أسلحتنا العتيقة التي تشبه أسلحة اللصوص، ووجوهنا التي تشبه وجوه السعالي، ومعنوياتنا المتدنية التي تشبه معنويات كلب مات صاحبه، سوف تهزم هؤلاء القادمين إلينا بحاملات الطائرات والبوارج والدبابات المتطورة... أبداً أبداً...كان ضابط الدعاية ببنطلونه الذي يشبه البرشوت، ووجهه الريفي الذي يشبه عجينة ساقطة في التنور يعتقد إن دفع صدورنا إلى أمام، كافية أن تجعل رصاصتهم ترتعد وتسقط. وإن شواربنا السود المفتولة والمبرومة جيداً، وحدها كافية أن تجعل طائراتهم المتطورة، تتهاوى مثل السحالي في العاصفة...

*

سيأتي الأمريكان ويجيئون بالديمقراطية...بغداد ستصبح مثل نيويورك،

العمارة ستصبح مثل شيكاغو، الصدر ستي ستصبح مثل لاس فيغاس الرمادي ستكون مدينة الأحلام، ستختفي الملابس الفلكلورية المغبرة والوجوه الكالحة، وستحل محلها الوجوه النظيفة والمترعة بالصحة...هذا ما كنت أؤمن به من كل قلبي، هذا ما كنت أؤمن به وأنا صامت دون أن أقول شيئاً لأحد أبداً. دون أن أقول جملة واحدة قريبة من هذه الفكرة لشخص على الأرض حتى ولا لأقرب الناس مني. وحتى هذا الحمار الخباز قد شك في الأمر، وسألني مرّةوكنا نقف يومها في الدور، أمام رحبة العجلات، كي نحصل على حربات جديدة، وملمعة. لأن الضباط وهم من فصيلة البغال ولا شك في هذا، كانوا يعتقدون بأننا سنلتحم مع الأمريكان في معركة بالسلاح الأبيض وسنحتاج إليها...وهكذا وجدته يهمس لي بخسة:

-عريفي هل تعتقد أن الأمريكان سيهزموننا...؟

كان جيفة الجاموس هذا، يعتقد أنني حمار مثل سعيد أبو نظارة كي أقول له: نعم، ثم سيقف في الطابور كي يصوب علي بندقيته، يشفط أنفه ثم يجعلني أسقط مثل خرقة مسح الأرضية...

قلت له: لا!

وفي قلبي قلت له: نعم! وسوف أعرف كيف أنتقم منك يا ابن القحبة، بل سأجعلك ليومين تلعق مؤخرة السخلة وتشرب بول البعير...يا ابن الخنزيرة.

قلت لكم بأني لا أخفي عنكم شيئاً... وهذا ما أقوله لكم اليوم صراحة، كما قلته قبل مئة عام. أقولها دون رفة جفن، أو أزمة ضمير من تلك التي تتعلق بالكرامة. لأن الكرامة أسقطها عدد الإهانات التي أكلتها في حياتي، أسقطها التحدث مع أناس متعجرفين في الجيش، وخدمة رجال حمقى لا يصلون إلى ركبي. ومن ثم اشتراكي بحروب عابثة أطارت نصف جسدي

ـانت كافية لتجعلني أؤمن أن مشكلة بلدي ليست في احتلاله، إنما [illegible]
[illegible]ـتل من قبلُ لفترة طويلة.

كنت ومن الأيام الأولى أعتقد أننا معهم سنكون أفضل حالاً مما لو نحن من دونهم. إنها أميركا يا ناس: من يا ترى أكثر تطوراً بغداد أم نيويورك، الصدر ستي أم لاس فيغاس، الكوت أم شيكاغو، العمارة أم كاليفورنيا... الرمادي أم ميامي...يمعودين دعوكم عني...يا حمار ابن حمار الذي يعتقد أننا من دون أميركا سوف نكون أفضل.

لست أنا وحدي من يقول ذلك، ولكن الكثير من العراقيين يعتقدون أننا سنكون بأفضل حال معهم. سيأتون لنا بكل شيء في السليفون. كل شيء جديد ومعلب ومسلفن مثل زهور عيد الميلاد. كل شيء رائع ومغري مثل سعادة. وهؤلاء الجنود حتى وإن لم يكونوا ملائكة، وليس من شأنهم أن يكونوا كذلك، فأنا أعتقد جازماً بأنهم إن قالوا سيفعلون...أنا أصدقهم. هذا الشيء كنت متأكداً منه مثل تأكدي من وجودي، ومن وماهيتي، ومن أذني التي سقطت في جيبي، ومن أضلاعي المهشمة، ومن أمعائي التي أفسدها البارود والجوع والركل.

أقول لكم لم يكن لدي أدنى شك في هذا. سيأتي الأمريكان لبلادنا الجربة بكل شيء رائع، سيأتون لشوارعنا المختنقة بالغبار والذبان بكل شيء ناصع وأبيض مثل صدور المراهقات. بل أن الأمريكان سيعيدون لي أذني التي سقطت في جيبي. سيصلحون لي أضلاعي، ومصاريني، وسيخرجون الشظايا التي اخترقت جسدي. وسيقولون لي:

-أنت رائع يا مستر سبهان...

لا أقول هذا ساخراً، لا والله، بل إن كلمة مستر هي الكلمة التي أ...
خارجة من أفواههم. بل هي أعظم كلمة يمكن لبشر أن ينطقها على الأر...
هل أبالغ في هذا؟ إنهم الأمريكان يا ناس، إنهم الأمريكان في النهاية ول...
حزبيو صدام...ومن يشك بهذا هو أكبر غبي على وجه الأرض.

*

كنت أعددت نفسي جيداً للحرب. وبدلاً من بشط الحربة، وتزيي...
البندقية، وعدّ الرصاصات للمعركة، بدلاً من الاستاعد والاستارح واليمين ...
وغير ذلك من المهازل، كنت أعد العدة لاستقبالهم. كنت أهيأ الزهور في...
جيبي، وأتعلم بعض المفردات الإنكليزية التي تمكنني من التفاهم معهم
كدت أجن من الفرح. أقف مع الجنود وأشعر بأني أبتسم وحدي لمجر...
تذكر أنهم سيأتون في الأيام المقبلة. أشعر بقلبي يقفز من مكانه، يقفز
من الغبطة مثل عصفور...وهذا ما أثار الخباز وعزز شكه، بل حتى ضابط
الدعاية الحزبية ببنطلونه البرشوت صار يراقبني...

-لماذا أنت فرحان؟ سألني الخباز مرة...

-أنا فرحان... لأننا سننتصر!قلت له. فسكت.

لم تكن الحرب طويلة. كانت مثل نزهة...وقد أحدثت أول إطلاقة سمعتها دوياً في رأسي، أحدثت في طبلة أذني الساقطة صوتاً يقول إن موعد التغيير قد حان. إن اللحظة التي يدور فيها المفتاح في القفل فيتوقف الزمن عن الجريان قد حان. وفي ذلك اليوم بالذات شعرت بأن هناك في الجانب الآخر الذي هو هنا بالضبط، ستجيئ عاصفة من المطر لتغسل كل شيء. لتغسل هذا الغبار الذي كتم أنفاسنا.

-الجيش الأميركي يتقدم.

فأربدت الريح بصوت عال كأنه صراخ امرأة.

في الصباح الباكر، أرسل ضابط الدعاية فصيلاً من الجنود لاستشعار [illegible] العدو، لكنهم أخذوا يتعثرون في مهمتهم. راحوا يجرون أحذيتهم الضخمة المصنوعة من الجلد عبر الوحول الثقيلة، لقد دفعتهم العاصفة ذاهبين على إيقاع نشيد عسكري، على إيقاع صوت ضابط الدعاية، لكنهم بعد يومين عادوا إلينا بخطى ينقصها الثبات، ببساطة شعرت بأنهم هزموا حتى من دون معركة.

قال الضابط:

- سنكون هنا...عند التلة...

تقع التلة قرب مزبلة للقطط النافقة وسوق السمك الذي تهب منه روائح عفنة في النهار.

-أما نختار مكاناً أفضل من هذا؟ قلت في نفسي.

-مكان استراتيجي! قال الضابط أبو بنطلون يشبه البرشوت.

غير أن هذا المكان الاستراتيجي لم يمر به أحد. ذهبت القوات الأميركية إلى بغداد مباشرة، وأسقطت تمثال الرئيس. ومن يومها اختفى الخباز وضابط الدعاية الحزبية من الكتيبة، ولم يعد يسمع بهما أحد أبداً. لقد اختفوا في العاصفة مثل ظلال. والأرض التي كنا نقف عليها أخذت تفوح برائحة الجثث. الطعام اختفى من حانوت الكتيبة، ولم يعد هنالك خباز ولا سواق ولا كلاب. الكلب الوحيد الذي بقي هو كلب الآمر. كان يأكل من مزبلة الكتيبة فيما مضى، بينما أخذ اليوم يبحث عن شيء يأكله ولا يجد.

- يجب أن يأخذ المرء الانتصار بالحرب بنظر الاعتبار، عليك أن تكون ذا

عقل تاريخي حقاً. أميركا أفضل حتى للكلاب. قال المعلم المجند للنادل
وهو يقنعه بالاستسلام.

*

ها نحن بانتظار الأمريكان. غسلت وجهي مرتين في الصباح وأعددت
الزهرة جيداً في الجيب، وصعدت التلة.

-هولت! صرخوا...

-فريندز...أجبتُ.

وقبل أن تصل يدي إلى الجيب...سمعت صوت الإطلاقة...

كانت الشمس صامتة تتخلل سحب الغبار. شيء أشبه بزجاج مهشم تساقط من رأسي. صحارى من الأنقاض سقطت عني. خيّل إليّ إني سمعتُ صوتاً خفيضاً للدم وهو يسيل في ناحية ما من جسمي. فالتفت الأميركي الأسود ناحيتي وهو يبتسم. دقق النظر بإصابته. لم تتناه إليه ضوضاء أخرى إلا من رأسي.

-ابن القحبة!

لابد أن ذلك كان من وحي خيالي. ولكن لسبب ما ساورني شعور غريب بالتشكك بأني مت. كان الأمر أكثر من ذلك- كان شعوراً أقرب الى الفزع، كتلة متداخلة من المخاوف لم أملك لها تفسيراً حتى لنفسي.

*

صعدتُ إلى السماء. أوّل ما رأيت، رأيت هوائيات التلفزيون. بيريات

الجنود تتصاعد مثل أسراب من الغربان في مطلع الفجر. ملابس [illegible]
بالية. أكياس نايلون مهملة. نفايات تتصاعد من العراق. أما في [illegible]
شعرت للمرة الأولى بنهاية الأنين والقلق، شعرت بأن روحي [illegible]
ثقب في السماء وسقطت في ذاتها، ثم دخلت في ممر لا نهاية له، [illegible]
ألهث داخل دهليز. في نهاية الدهليز يقف الملاك.

-من أنت؟ قال الملاك.

-عريف سبهان!

-من؟

-عريف سبهان...ألا تعرفني.أنا الذي طير القناص الأميركي رأسه في الهواء مثل خراء العصفور...أنا شهيد...والشهيد كما قال صدام حسين يذهب للجنة مباشرة.لديه تسهيلات، أقصد من دون تأخير...

بدا الشك واضحاً على وجه الملاك. رفع يده قليلاً وحركها بصورة تعبر عن استغرابه...قال:

-لكنك مددت يدك إلى جيبك لتقدم زهرة أليس كذلك...؟

-نعم فعلتها! وهل هذه تؤخر حسم ملفي...؟

- بالتأكيد.قال الملاك.تريد أن تقدم زهرة إلى عدوك وتريد أن تكون شهيداً في الوقت ذاته...شنو أنت لوتي؟

صفنت في وجه الملاك مثل أبله وأردت أن أحصل على نتيجة قطعية:

-ولكن بربك قل لي أيها الملاك الطيب ماذا تحسبونني الآن: شهيد أم لا؟

-هذا يعتمد...لست شهيداً...لكنك لست مقتولاً عادياً أيضاً...في الوقت

الحاضر عليك الانتظار مع غير المحسومة ملفاتهم...

جوابه أسعدني قليلاً، قدم لي قليلاً من الأمل، في النهاية يمكن أن يكون هنالك حظ وأصبح شهيداً وأدخل الجنة...صفنت قليلاً وقلت له:

-يحدث هذا طوال حياتي...أيها الملاك الطيب، فأنا حينما رفعت إلى رتبة عريف بقيت فترة طويلةً بين بين، فقد اكتشف الضابط أني غبت مرة فوق إجازتي يومين، فأخر الاعتراف برتبتي...وهكذا أصبحت داخل الوحدة عريفاً ولكن! عريف بين بين! أنا هكذا دائماً عريف بين بين، شهيد بين بين...ولكن أسألك أيها الملاك الطيب هل سيستمر وضعي هكذا طويلاً؟

-في الواقع الوقت ليس له قياس هنا، ذلك أننا هنا- كما تعلم- في الأبدية، لقد استغرقت رحلتك مئة عام كي تصل إلى نهاية هذا الدهليز...

-صحيح؟ لقد استغرقت رحلتي مائة عام...شيء رائع، ولكن هل يمكنني أن أرى ما حل ببلدي بعد هذه المدة؟

-عليك أن تهتم بنفسك هنا أيها العريف الطيب ولا تهتم بمسائل أهل الأرض أبداً...مثلك كثيرون...ونحن الآن مازلنا في المرحلة الإغريقية...ما زالت اليونان لم تكتمل بعد...يعني عليك أن تنتظر طويلاً...

-ولكن أين سأذهب؟

-يمكنك التنزه هنا وهناك...فهذا المكان مسموح به...

-شكراً أيها الملاك الطيب...قلت له واستدرت قليلاً لأكون بمواجهة عرش كبير يجلس عليه الله وفي مواجهته رجل صغير الحجم يتكلم بصورة واثقة...فاستدرت إلى الملاك...

-أيها الملاك...أيها الملاك! سؤال أخير: من هذا الرجل الذي يحاسبه الله،

أليس ممثلاً أميركياً؟ أخال أني رأيته من قبل في فيلم من [illegible] عرضته قناة 7 العراقية؟

-هذا...كلا...ألم أقل لك أننا ما زلنا في المرحلة الإغريقية...هذا [illegible] إن سمعت به...الفيلسوف سقراط.

كان سقراط بصلعته التي تشبه القبة يحاجج الله، وكل مرة يطرح سؤالا. فغضب الله وقال له:

-يا سقراط أنت تسأل كثيراً، بينما عليك أن تجيب عن الأسئلة التي أوجهها لك...

-نعم يا ربي أنت محق، ولكنني أرى أنك بدلاً من إرسالك كل هذا العدد من الأنبياء إلى أهل الأرض، ويكذبونهم، ويجدون الأمر خارج حدود التصديق، لكنت وفرت الكثير لو أخرجت من وقت إلى وقت ميتاً من الموتى، يخرج من قبره ويخبر الناس بما حدث لهم.

من الواضح أن الله رأى في كلام سقراط شيئاً من العقل، فصمت ووضع يده على حنكه مفكراً، فقلت في نفسي: لم لا أستثمر هذه الفرصة وأطلب منه لينزلني إلى الأرض. فرفعت يدي له، سرعان ما انتبه الرب، وصرخ بي:

-من أنت؟

-عريف سبهان يا ربي...قلت له.

-من؟

-عريف سبهان يا ربي، أنا الذي طير القناص الأميركي رأسه في الهواء مثل ذروق العصفور. وكنت أحسب أنني شهيد، ولكن يبدو أن ملفي قيد الدراسة.وبما أن أمر حسابي سيتأخر قليلاً، لم لا تأمر يا ربي وأهبط أنا إلى

الأرض...كميت أستيقظ من القبر وليخبر أهل الأرض بما رأى...وأنت تعلم أنا جئت من منطقة هي سبب المشاكل في العالم. كما أني أريد أن أرى ماذا حل ببلدي بعد الحرب؟

سكت الرب برهة، ثم هز رأسه موافقاً...فابتسم سقراط، وتهيأ الملاك ليحملني إلى أهل الأرض.

*

أيها السادة أقول لكم الحقيقة:

أثناء هبوطي إلى الكوت شعرت بتغيير ما حلّ في الرحلة كلها، شعرت بشيء مختلف جداً عن رحلة صعودي إلى السماء...ففي رحلة صعودي رأيت النفايات تتطاير من الكوت: البارود، أكياس النايلون البالية، الملابس الداخلية المهلهلة، قطع غيار السيارات الخردة...الغبار، الذبان...لكن في رحلة الهبوط كان الأمر مختلفاً جداً...فقلت للملاك الذي وضعني على غيمة كي أستريح عليها:

-ربما أخطأت!

-أخطأت هل أنت مجنون؟قال الملاك بلهجة مستنكرة...

حملني من الغيمة التي حط عليها...رفعني من ياقة قميصي بينما ارتفعت ساقاي كما لو كنت أسبح في الفضاء وطرت...يا للنشوة يا للغبطة وأنا في الهواء...شكل مفاجئ يتجسد ويتمظهر أمام عيني، إنها الكوت مثل شفاه طرية منفرجة، نهارها الذهبي يستيقظ مع الضوء. نهرها يستلقي ممدداً. أشبه بالجنة فيها أنوار ناطقة لا يحجبها الغبار، ونهود جريئة كفيضان من الأقمار.

كلما تقدمنا كنت أرى جنة التحولات. نور يصل السماء بالهواء، ويختلط الماء بالتراب...أبتسم وأنا أتقدم مع الملاك بين السماء والغيم الأبيض الخفيف الذي يحيط بالمدينة...كنت أتعرف شيئاً فشيئاً على الكوت؛ النهر هو أول ما تعرفت إليه، دجلة بالتأكيد، التواءاته التي تشبه التواءات أفعى، الأرض الخضراء المحيطة بضفتيه، بياض مائه النقي، الزرقة الشفافة في العمق، الأشجار الباسقة المحيطة بالأرض المعشبة...

-أهذه لاس فيغاس...مانهاتن...ميامي؟ ماذا جرى لك يا مدينتي التي كانت مختنقة بالذبان والتراب مثل مدينة في الباكستان...كيف استحلت إلى مدينة عظيمة؟ بكيت وضحكت وأنا أسأل ملاك الرب:

-يا ملاك الرب بالله خبرني هل أخطأت في المكان؟ أتكون دخت؟ رأسك استدار وبدلاً من أن تذهب جنوباً رحت شمالاً؟ تحدث! سواقنا العراقيون يفعلونها! تقول له أنت ذاهب إلى مدينة الكوت، يأخذك إلى مدينة أخرى! يقول لك أنه داخ! ثم يسلبك نقودك أيضاً! أتكون تهت يا صديقي...ممكن! لن أقول للرب، لن أخبره عنك كي يعاقبك، صدقني! فقط قل لي من هذه المدينة التي تأخذني إليها؟

-الكوت...قال ملاك الرب دون أن يزد كلمة واحدة...

-الكوت التي أعرفها- قلت له- كانت قرية ولا قرية في الباكستان! لن تمشي مترين فيها دون أن يعبئ أنفك غبار الطريق...دون أن تتعرق كما لو كنت أدخلت رأسك في فرن، ثم يتجمع على عينيك الذبان كما لو يتجمع على بصاق...

لم يعد ملاك الرب يحتملني وأنا أجادله هكذا. قلت لأسكت إذن، هو ملاك الرب في النهاية، وهو ملاك أصلي وليس تقليداً. ملاك من ملائكة

السماء ولم تصنعه الصين من البلاستيك...كما تصنع تلك الأيام صور أئمة، ورقع الصلاة، والبيارق الدينية، والمسابح، والمباخر وغير ذلك...ملاك من المنبع! جئت به من السماء، جئت به من الأصل، ملاك صناعة إلاهية وليس في معامل التزييف في السعودية أو في إيران...

فهل من الممكن أن يكون قد أخطأ؟ لا يمكن ذلك...إذن لأسكت وأرى النهاية...

قلت له: (يا ملاك الرب أنزلني في المكان الذي استشهدت به...في المكان الذي أطار فيه القناص الأميركي رأسي وفجره في الهواء...هناك في ذلك المكان القريب من النهر، على التلة التي صنعنا منها موضعاً عسكريا أيام الحرب، حيث سوق السمك العفن، والزبالة التي تلقى فيها القطط النافقة)

لف الملاك لفة في السماء، حلق تحليقاً طويلاً، وبحركة رشيقة واحدة هبط بخفة. توقف. وبهدوء أنزلني على قدمي. أنزلني في مكان نظيف وفسيح عند بوابة عمارة كبيرة مصنوعة من الزجاج الشفاف، عمارة كبيرة لا أعرف عدد طوابقها، ربما مئة طابق! أشبه بناطحة سحاب عالية، لها برج كبير يخترق السماء، تنعكس الشمس الصافية على زجاجها، وهنالك بضعة نساء يسرن عند المدخل. أما الأرضية فقد كانت مرصوفة بالحجر الأبيض الناعم. الشارع المقابل شارع عريض جداً، يحيط به الشجر الكبير من جانبيه، ويظلل الرصيف، فيهب من الظل نسيم بارد عذب، يخفف حرارة شمس الضحى.

-هذا المكان الذي استشهدت به! قال لي ملاك الرب. استدار نحو السماء وبلحظات اختفى.

هبطت بهدوء. تحسست وجهي بيدي. نظرت إلى المكان:

الشيء اللافت كانت هنالك بوابة مترو في مواجهة العمارة ال[illegible] المترو الذي انتظره العراقيون طويلاً...عند عتبتها الزجاجية يافطة كبيرة [illegible] كتب عليها باللغة العربية وبحروف لاتينية:

بوابة الحب... Bawabet Al-hubb

قلت يا إلاهي هل غيروا الأسماء أيضاً...يافطة شارع إلى الجوار اسمه: العشاق أفنيو...Al-ushaq Avenue ...حديقة كبيرة وسورها العالي يصل إلى قائمة مترين تقريبا اسمها: جنائن الرحمة....Jana'n Al-rahmeh...

*

يا سادة ثلاث ساعات وأنا أتجول في الأفنيو الكبير المقابل لمترو الحب، في جنائن الرحمة، زقاق التسامح Zuqaq Al-Tasamuh، مكتبة الشعراء السعداء 'Maktabet Al-shuara' Al-Suada، مطعم الطبيعة الجميلة Mat'am Al-Tabi'ato Al-Jamileh . يمر الناس أمامي وهم مبتسمون. يرتدون ملابسهم النظيفة والجميلة كما لو أنهم في حفلة. وجوههم مفعمة بالصحة. أجسادهم رياضية كما لو كانوا شباب اسبارطة. في تلك اللحظة تعرفت على الساحة التي كان الشحاذون يملئونها، توقفت أمامها بالضبط. كان هنالك عمود من زجاج مضيء، ويافطة عالية تحمل اسمها الجديد: Sahat Al-Amal (ساحة الأمل)، لقد أصبحت ساحة جميلة فيها نافورات متعددة تخرج من الأرض مباشرة على أنغام موسيقى. وعلى مقربة من الأشجار الباسقة بضعة أطفال سعداء يلعبون. لقد عرفتها نعم إنها ساحة الكوت. الساحة التي كانوا يعدمون فيها الهاربين من الجيش فيما مضى. خمس دقائق تقريباً وأصبحت ثانية أمام التلة التي طار فيها دماغي...حيث

كانت العمارة من جهتها الخلفية، أما جهتها الأمامية فقد حافظوا عليها وأسموها تلة الموسيقى Tallat Al-Musiqa...ثمة فرقة موسيقية تعزف أنغاماً هادئة وأمامها بضعة عشاق يرقصون.

*

عند منعطف الصداقة، استوقفت رجلاً وسيماً يضع ذراعه على كتف شابة سمراء جميلة. الرجل في الثلاثين من عمره، يرتدي ملابس في غاية الأناقة، ابتسامته أول ما لفت انتباهي...صحت به:

-يا أخ لدي سؤال...

في البداية استغرب، ثم وقف وهو ينظرني بينما تغيرت أسارير وجهه..

-معي؟ قال بصوت عذب، بعربية خفيضة.

-نعم معك...لدي سؤال أهذه مدينة الكوت؟

-نعم...إنها هي...ولكن لماذا تتكلم معي بصوت غاضب، هل أصابك شيء، هل تشكو من شيء؟

-أنا لا أبداً...لست غاضباً...بل أنا أجد صوتك خفيضاً جداً، وتستخدم لغة مختلفة عن اللغة التي تركت أهل الكوت يتكلمون بها قبل مئة عام...

-قبل مئة عام؟ قال مستغرباً.

-نعم في الحقيقة أنا جندي عراقي استشهدت هنا في الكوت أثناء الحرب مع الأمريكان قبل مئة عام...

كنت شعرت بأن الرجل غير مصدق، كما لو كان قد عثر على واحد من أهل الكهف، القصة التي يتحدث عنها القرآن، وهي أن مجموعة من الناس

كانوا يؤمنون بالمسيحية في زمن حاكم ظالم يقتلهم، فجمدهم الرب ثلاث مئة عام. وحين عادوا، وجدوا أن المدينة أصبحت مسيحية، وأن قصتهم أصبحت معروفة لدى الناس...

أبدى الرجل استغرابه من الطريقة التي أتكلم بها. فأنا أتكلم بحروف حلقية شديدة الانفجار، تشبه معركة. أما اليوم فيتكلم السكان بهدوء واضح. وأصبحت مخارج أصواتهم رقيقة وناعمة...

قلت له:

- لا بد أن الديمقراطية غيرت حتى أصواتكم!ثم قلت في سري (أميركا ألم أقل لكم أنها قادرة على المعجزات)!

-في الحقيقة أنا لم أفهم ما تقول، فاعذرني أرجوك وقل بصورة هادئة ما تريد كي أساعدك!

قال الرجل ذلك، بينما كانت الشابة إلى جانبه تخفف عليّ بابتسامتها العذبة، وضحكاتها الخارجة من القلب...

قلت له:

- اسمع يا سيد أنا جندي عراقي قتلت قبل مئة عام، قصتي طويلة، لا أعرف إن كنتم تعرفون بقصة العريف سبهان أم لا! كما سمع المسيحيون القدماء بقصة أهل الكهف!

-اعذرني لا أعرف!

- على العموم أنا العريف سبهان الذي طير القناص الأميركي رأسه مثل خراء العصفور، هنا فوق هذه التلة! وقد صعدت إلى السماء في الحال. ولكن يوم الحساب تأخر، أنت تعرف حروب العراق والمسلمين كثيرة

وبحاجة إلى وقت، قتلى وشهداء كثيرون، بل أن معارك السوق في الكو، ذلك الوقت وحدها بحاجة إلى عصر كي يفصل الله ويحكم بها...مشاكلنا ألا تعرف مشاكلنا؟ وبما أن زمن الأنبياء انتهى فقد اقترح حكيم إغريقي أن يبعث الله من وقت إلى وقت أحد الموتى ليبشر بالدين...وهكذا وقع اختيار الله علي، على العريف سبهان، قال لي يا عريف سبهان اذهب إلى الكوت وبشر الناس بالدين...هذا بكل اختصار.فجئت إلى المدينة التي قتلت بها، مدينة الكوت، كي أبشر بالدين، لست نبياً ولكني مبعوث كي أبشر بالدين...

-دين؟ لسنا بحاجة إلى دين يا سيد! إنه لأناس متوحشين لكي يعرفوا عدل الله وقوانينه! والمشكلة أن الناس تفسره على هواها لتثبت وحشيتها وبربريتها...ما حاجتنا به ونحن أناس متحضرون، نعرف الله، ونحكم بعدل الله، وبحبه، وبتسامحه، ومساواته بين الناس... من عنده الله ليس بحاجة إلى الدين...

-ماذا تقول لستم بحاجة إلى الدين؟

-أبداً ما حاجتنا به؟ لقد استغنينا عنه من مدة طويلة...ونحن الآن بحال أفضل بكثير... إن التجربة علمتنا أن نشوة الوجد الديني تجعل الناس قساة القلب (كذلك يفعل الإيمان بالقضايا)، انه يبلد مشاعرهم.

-أوه.أكاد لا أصدق...وكيف تسير الحياة لديكم من دون أن تعرفوا الدين...

-بالعكس...المدينة من سنوات لم يحدث فيها خلاف واحد...ولم يعد هنالك سنة، ولا شيعة، ولا مسيحيون، ولا يهود، ولا صراعات، ولا حروب أهلية، ولا أحد يحكم على الآخر على دينه...

-بالله عليك، لدي سؤال وأرجو أن لا تسخر مني...هل أنت [illegible]
أنا في الكوت، أم أنا في مدينة أخرى...

-نعم إنها الكوت يا سيد، أنت هنا في العالم المتحضر...لا [illegible]
للدين، ولكن أقول لك الحق، أن أجدادنا أشعلوا حروباً كثيرةً بسبب التعد[illegible]
والدين والطوائف وأشياء أخرى...ولكن الحمد لله الذي أشفانا من الدين،
وأصبحنا من دونه بسعادة كبيرة، من لديه الله ليس بحاجة إلى الدين...

-نعم أنت محق ولكن لدي سؤال هل هذا حدث بسبب الديمقراطية
أم ما...

-لا أعرف بالضبط...ولكن التاريخ استدار دورة كبيرة. هذا ما حدث
لأميركا فيما بعد، حينما تمسكت بالدين وأصبحت دولة متعصبة...

-أميركا دولة متعصبة؟

-أوه ألا تعرف؟ يبدو أنك فعلاً لا تعرف ما حدث للعالم من زمن بعيد.

-نعم كما قلت لك أنا استشهدت قبل مئة عام أثناء الحرب. حينما جاء
الأمريكان واحتلوا العراق من أجل الديمقراطية...

-أوه طيب...نحن نعرف التاريخ جيداً...المشكلة وكما تتذكر أن الحرب
الطائفية اشتعلت بعد الديمقراطية الأميركية مباشرة. فكرهت الناس هذا
الوضع، كرهت التعصب والكراهية والإرهاب، وأصبحت تطارد المتعصبين...
غير أن المتعصبين وجدوا ملاذاً لهم في أميركا، وهذه هي المشكلة الآن...
لقد أصبحت أميركا دولة متعصبة يسيطر عليها الدين غير المتسامح، وقد
هدم المتدينون المتشددون عماراتها ومبانيها وحضارتها...وأصبحت الآن
مثل أفغانستان قبل مئة عام حينما سيطر عليها طالبان...

-هل تتكلم حقيقة يا سيد؟

-نعم بالتأكيد...هل لديك شك؟

-أنا في الحقيقة... كيف أشكو أنا ميت من مئة عام... ولكن أبدو مثل أخرق.ما تقوله بعيد عن التصديق هل تخلت أميركا عن الديمقراطية؟

-نعم إن أميركا الآن دولة مارقة...وهي من محور الشر، والعالم المتحضر يحاول أن يعيدها إلى رشدها باحتلالها وإعادة الديمقراطية إليها...

-يا إلهي ما هذا الذي تقوله...ومن هم العالم المتحضر يا سيد؟

-إنهم الدول المتمدنة والمتحضرة والديمقراطية الثلاث: العراق والسعودية وإيران! فأنت تعرف بعد أن تحول العراق إلى الديمقراطية، سقطت الحكومات الدينية في هذين البلدين، وأصبحا بلدين ديمقراطيين وعلمانيين.

-آه إيران والسعودية؟

-نعم، هما الآن في طليعة العالم المتحضر، مثل العراق تماماً. لكن المشكلة في الغرب، نعم المشكلة في الغرب الذي تحول إلى واحة للإرهاب، وإلى ملاذ للتعصب الديني والكراهية...أمامنا واجب كبير يا سيد علينا أن نعيد الديمقراطية إلى هذه البلدان ليصبح العالم أكثر أمناً... والآن اسمح لي يا سيد فأنا على عجلة من أمري، نريد أن نذهب أنا وصديقتي إلى حفلة لنتبرع بها إلى الأطفال الأميركيين اللاجئين ببعض الحاجيات... إذا أردت الاستراحة فهنالك مقهى الفن الرائع، يقع في نهاية هذا الشارع، يمكنك أن تتناول المرطبات أو الشاي أو القهوة...فهو مجاني، للناس الذين لا يحملون معهم المال...

-شكراً لك على المعلومات...مع السلامة يا سيد مع السلامة يا سيدة... يحفظكم الله ويعينكم على رعاية اللاجئين من إخواننا الأميركيين والأوربيين فهم يستحقون الرعاية بسبب دكتاتوريات بلدانهم...

ضربت يدي على رأسي...ما هذا...أحقاً أن الأرض تدور بصورة صحيحة... ماذا قال هذا الرجل، على العراق أن يخلص الشعب الأميركي من الدكتاتورية ويعيد له الحرية...ومن ثم ما هي قصة اللاجئين الأميركيين في العراق، هل هذا معقول، العراق يقدم حالة لجوء لأميركيين مضطهدين في بلدانهم، حرية تعبير، وأشياء أخرى...هل شربني الملائكة شيئاً مسكراً قبل أن يعيدوني إلى الأرض...؟ والله لا أعرف لأذهب إلى هذا المقهى وأتأكد من الأمر...

سرت مئة ياردة حتى أصبحت في مواجهة مقهى الفن الرائع.

التلفزيون في المواجهة، وأنا أشرب عصير برتقال حملته نادلة جميلة جداً. وقدمته فوق طبق مزخرف بالفضة أمامي على الطاولة.

-سيدتي هل يمكنني أن أسأل فد سؤال؟

-تفضل...طبعاً يمكنك أن تسأل.

-هل أنت من مدينة الكوت؟

-لا يا سيدي أنا من مدينة الناصرية ولكني أعمل هنا...

-الناصرية؟ آه الناصرية...ذكرتيني بالناصرية...لقد ولدت في الناصرية. وهل أصبحت متطورة أيضاً، هل أصبحت مثل الكوت؟

-بل أكثر يا سيدي...ولكني أعمل هنا فقط...في الواقع زوجي من مدينة

الكوت هذا كل ما في الأمر، ولكني من الناصرية، زهرة الجنوب، هي الأكثر تطوراً بطبيعة الأمر.

- يا إلهي أكاد أن لا أصدق...

-هل تريد شيئاً آخر ...

كانت نشرة الأخبار قد بدأت وظهر الرئيس العراقي على شاشة التلفزيون مع كلبه وخلفه منزل كبير...

-هل هذا الرئيس العراقي؟ سألتها.

-نعم إنه أمام البيت الأخضر مع كلبه...سيقول شيئاً مهماً فيما يخص الحرب على التعصب الديني في أميركا...وانتهاك حقوق الإنسان، ولاسيما انتهاك حقوق النساء، وانتهاك حرية التعبير...

-آه...سأتابع ما يقول...قلت لها.

*

صدقوني يا سادتي هذا كل ما حدث لي! وما أن كنت أشاهد الأخبار على التلفزيون دخل شخصان إلى المكان وتقدما نحوي. بدا عليهما أنهما من الشرطة، عرفتهما من ملابسهما والعلامات التي عليها. وقفا أمامي مباشرة، فرفعت رأسي نحوهما. قال الرشيق منهما وهو أصغر سناً من الآخر.

-هل يمكننا أن ترينا أوراقك أيها السيد؟

-في الحقيقة لست لدي أوراق...

-أنت مشكوك فيك...أنت أميركي يا سيدي، لديك سحنة شخص غاضب، شخص متدين، وفي صوتك الجهوري بأصواته الانفجارية علامة من علامات

الإرهابيين.

قلت لهما متوسلاً:

-لا يا سيدي أبداً، هذا النوع من الكلام يخص حقبة ماضية في هذا البلد...كانت ذلك الوقت مقبولة وليست إرهابية.

-هل أنت عراقي؟

-نعم والله أنا العريف سبهان...ألم تقرؤوا التأريخ، ألم يكتب لديكم في الكتب عني، أنا الذي فجر القناص الأميركي رأسه مثل خراء العصفور...في الواقع أنا شهيد، وإن لم يعترف بي بعد عند رب العالمين كامل الشهادة، ولكن طلبي تحت الدراسة، وجئت هنا لأبشر بالدين...

-بالدين...؟

-نعم بالدين.

-لقد عرفنا بأنك إرهابي!

-اسمعاني والله...قصتي قصة أخرى علي أن أحكيها لكما من الأول... اسمعاني...يواش دقيقتين قبل أن أذهب معكما.

*

في الظهيرة أخذ المطر ينهمر، في البداية بشكل خفيف ثم أخذ يقوى، حيث أخذ يجلد زجاج البنايات العالية وينهمر على الأشجار. دام ذلك حوالي خمساً وعشرين دقيقة، خلـّف المطر بعدها مساحات زرقاء في الأعالي، وهبطت، بعد أن انسحب الغيم، نافوراتٍ من الضوء. في الشارع الممتد أخذ بخار أبيض يتصاعد من الإسفلت، السيارات كانت تلمع وهي تمر. دجلة فيه زوارق وأشرعة بيض، فوق الكوت غيوم خفيفة. وموسيقى

نحيلة تضيء شرفات المنازل.

ذكرت المحامية أن صحيفة الكوت أوبزيرفر أغفلت حقيقتين في خبرها: الأولى أن التهمة الموجهة لموكلها هي الإرهاب، كما أغفلت الصحيفة خبراً مهماً قادماً من أميركا، إذ عمت شائعة هناك تقول بظهور الأعور الدجال في العراق.

بروكسل 2015

الفهرس

ستصدر قريباً عن دار ألكا

رواية الزعيم

علي بدر

كاتب الروايات البوليسية، حفلة القتلة، جريمة جندي المخابرة. ماكنة الصور المرعبة، حكاية المترجم الهندي التي رواها لي صحفي ميت، وحدهم القتلى شهدوا نهاية الحرب، كبش الأساطير، ثلج النهار الملتهب، كأس بيرة غنيس إلى حنا...البحار القديم، حين سكرت مع البروفسور جيم في الحانة الإيرلندية، أقسم لكم أن السيد مودي في لندن، وموت الجندي الخيالي.

تمثل هذه القصص معًا عملاً أدبياً واحداً يتكون من 12 قصة، تتناول الكوابيس وصور الحرب المؤلمة مرسومة عبر فنطازيا وخيال سريالي تزاوج بين الواقعي والخيالي، وترسم على نحو ساخر احتدام التجربة الإنسانية بكل أبعادها.

علي بدر كاتب عراقي صدر له أكثر من 15 رواية، حصل على العديد من الجوائز، آخرها منحة بانيبال-سان أيدن في بريطانيا وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية. يعيش حالياً في بروكسل.

كتبت صحيفة الاندبندنت البريطانية عن قصصه بأنها تحمل كل جديد ونادر، من الحياة والمجتمع والثقافة، وكتابته نسيج آسر لا يمل من السرد الجميل المحمل بالمشاعر الانسانية



قصص